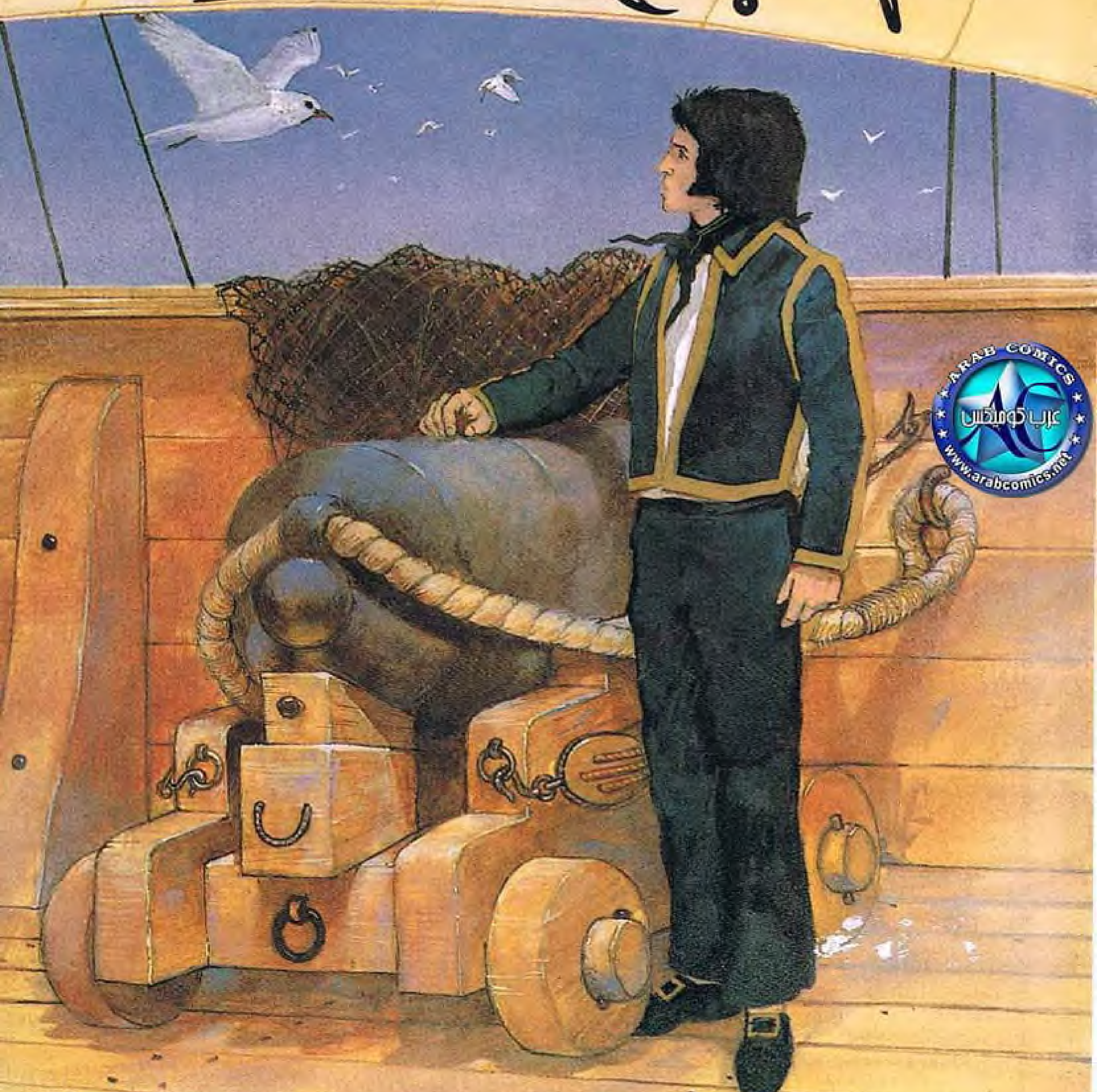
كتب الفراشة - القِصص العالميّة

البَحّار



كتب الفراشة - القِصَص العالميّة

البَحّار



أعادَ حكَايتها: الدّكتور ألبير مُطْلَق
عَن قصّة هِيرمَن مِلْفِل

مَكتبة لبْنان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٤

رقم الكتاب 01 C 196805

طبع في لبنان



مُقَدِّمَة

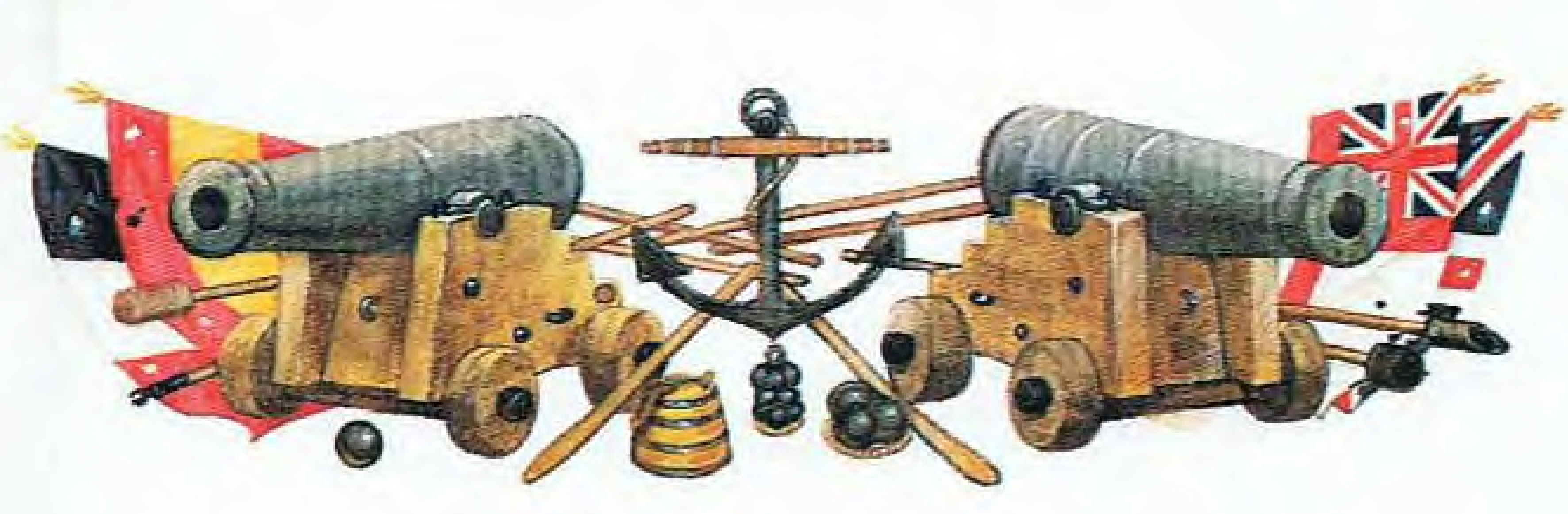
رَأَتْ رِوايَةُ «البَحّار» (Billy Budd) النُّورَ بَعْدَ مَوْتِ مُؤَلِّفِها هيرمَنْ مَلْفِل ، إذْ ماتَ قَبْلَ أَنْ يُنْجِزَ عَمَلَهُ عَلَيْها . فكانَ أَنْ جُمِعَتْ مِنَ الأَوْراقِ المُتَفَرِّقَةِ والمُسَوَّداتِ غَيْرِ النِّهائِيَّةِ الّتي خَلَّفَها . وقَدْ نُشِرَتِ الرِّوايَةُ عامَ ١٩٢٤ ، أَيْ بَعْدَ ثَلاثَةٍ وثَلاثينَ عامًا مِنْ وَفاةِ مَلْفِل .

تَدورُ أَحْداثُ الرِّوايَةِ إبّانَ حُروبِ نابوليون في مَطْلَعِ القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ ، وهِيَ تَصِفُ ، بِأُسْلوبٍ سَرْدِيٍّ واقِعِيٍّ ، نَمَطَ حَياةِ رِجالِ البَحْرِ على مَتْنِ سَفينَةٍ حَرْبِيَّةٍ ، وبِخاصَّةٍ بَحّارٌ وَسيمٌ مَحْبوبٌ يُدْعَى بِلي بَض . عَمِلَ بِلي بَحّارًا على مَتْنِ سَفينَةٍ تِجارِيَّةٍ اسْمُها «حُقوق الإنسان» قَبْلَ أَنْ يُسْتَدْعَى لِلخِدْمَةِ في السَّفينَةِ الحَرْبِيَّةِ «بليبوتَنْت» . وسَرْعانَ ما اكْتَسَبَ البَحّارُ الجَديدُ ثِقَةَ الجَميعِ وإعْجابَهُمْ ما عَدا واحِدًا هو الضّابِطُ الغَريبُ الأَطْوارِ كْلاغَرْت الّذي أَخَذَ يَنْظُرُ إلى بِلي بَض نَظْرَةَ حِقْدٍ وكَراهِيَةٍ يَصْعُبُ تَفْسيرُ سَبَبِها . وقَدِ اتَّهَمَ كْلاغَرْت البَحّارَ بِلي – زُورًا – بِأَنَّهُ يُدَبِّرُ مُؤامَرَةَ تَمَرُّدٍ ، وأَبْلَغَ ذٰلِكَ إلى القُبْطانِ فير. وهٰذِهِ التُّهْمَةُ هِيَ المِحْوَرُ الأَساسِيُّ في أَحْداثِ القِصَّةِ والسَّبَبُ المُؤَدّي إلى الخاتِمَةِ الّتي انْتَهَتْ بِها .

كانَ مَلْقِل خبيرًا بأُمورِ البَحْرِ، إذْ كانَ قَدْ عَمِلَ في مَطْلَعِ شَبابِهِ على مَتْنِ سُفُنٍ عَديدَةٍ، فَبَدَتْ رِوايَةُ «البحّار» كأَنَّها صُورَةٌ حَيَّةٌ عَنْ حَياةِ البَحْرِ في بِدايَةِ القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ. وفيها أَيْضًا ارْتِباطٌ بِالوَقائِعِ التّاريخيَّةِ في فَتْرَةِ الحَرْبِ بَيْنَ بَريطانيا وفَرَنْسا أَيّامَ حُكْمِ نابوليون. ولَعَلَّ هٰذا المَزْجَ الرَّشيقَ بَيْنَ السَّرْدِ الوَصْفيِّ الواقِعِيِّ والحَبْكَةِ المُباشِرَةِ البَسيطَةِ هُوَ ما يُعْطي «البحّار» صِفَتَها الأَساسيَّةَ، أَلا وهِيَ كَوْنُها رِوايَةً تاريخيَّةً مُبَسَّطَةً.

والكِتابُ، بِالإِضافَةِ إلى ذٰلِكَ، يُثيرُ جُمْلَةَ تَساؤُلاتٍ: لِماذا يَحْمِلُ كْلاغَرْت كُلَّ هٰذا الحِقْدَ لِبلي بَض؟ لِماذا يُلَفِّقُ الإِشاعاتِ عَنْهُ ويَتَّهِمُهُ بِالتَّمَرُّدِ؟ مَعَ أَنَّ بلي ذو شَخْصِيَّةٍ جَذّابَةٍ جِدًّا ويَتَمَتَّعُ بِاحْتِرامِ وتَقْديرِ بَقِيَّةِ البَحّارَةِ، وهُوَ لَطيفٌ ويُحِبُّ مُساعَدَةَ الآخَرينَ. حَتّى إنَّهُ لَمْ يَقُمْ بِأَيِّ عَمَلٍ يُثيرُ كْلاغَرْت، مِمّا دَفَعَهُ إلى اسْتِغْرابِ المَوْقِفِ الَّذي اتَّخَذَهُ مِنْهُ هٰذا الأَخيرُ.

وإذا نَظَرْنا إلى الرِّوايَةِ مِنْ زاوِيَةِ هٰذِهِ المُعْضِلَةِ بِالذّاتِ، نَجِدُ أَنَّها أَبْعَدُ مِنْ سَرْدٍ بَسيطٍ لِأَحْداثٍ عادِيَّةٍ، فَالقارِئُ مَدْفوعٌ لِلتَّساؤُلِ: لِماذا تَكُونُ طيبَةُ إِنْسانٍ سَبَبًا في إِثارَةِ الحِقْدِ والكَراهِيَةِ لَدى إِنْسانٍ آخَرَ؟ ولِماذا يُسَيْطِرُ عَلى أَهْواءِ بَعْضِ النّاسِ هَوَسٌ جُنونيٌّ بِتَحْطيمِ الآخَرينَ؟ لا يُقَدِّمُ لَنا مَلْقِل الإِجابَةَ، وإِنَّما يُبْرِزُ المُشْكِلَةَ في قالَبٍ قَصَصِيٍّ مُوحٍ ويَتْرُكُ لَنا أَمْرَ التَّحْليلِ والإِجابَةِ.



البَحّــار

لو قُدِّرَ لَكَ أنْ تطوفَ في ميناءٍ من مَوانِئِ تِلْكَ الأيّامِ الّتي كانَتْ فيها السُّفُنُ البُخارِيَّةُ قد أَخَذَتْ تحلُّ مَحَلَّ السُّفُنِ الشِّراعِيَّةِ ، لَرُبَّما كانَ وَقَعَ نَظَرُكَ على جَماعَةٍ مِنَ البَحّارَةِ ذَوي الأَجْسادِ البرونْزِيَّةِ ، وقد أَفْلَتوا من سَفينَتِهِمْ لِقَضاءِ إجازَةِ ساعاتٍ على الشّاطِئِ. ولَعَلَّكَ كُنْتَ رَأَيْتَ بَيْنَهُمْ بَحّارًا مُتَميِّزًا ، يُحيطُ به رِفاقُهُ إحاطَةَ الحَرَسِ بالمَحْروسِ. كانَ ذٰلِكَ الشَّخْصُ بَهِيَّ الطَّلْعَةِ عالِيَ الهِمَّةِ ، فائِقَ المَهارَةِ في أَعْمالِ البَحْرِ. وكانَ أَيْضًا مُلاكِمًا أو مُصارِعًا تُرْوى الحِكاياتُ عن مَهارَتِهِ وقُوَّتِهِ البَدَنِيَّةِ. وفَوْقَ ذٰلِكَ ، كانَ ذا أَخْلاقٍ عالِيَةٍ تَتَّفِقُ مَعَ بَهاءِ طَلْعَتِهِ وعُلُوِّ هامَتِهِ ، مِمّا ضاعَفَ من إعْجابِ رِفاقِهِ به.

تِلْكَ الصِّفاتُ الحَميدَةُ والمَزايا الفَريدَةُ اتَّصَفَ بها البَحّارُ الأَزْرَقُ العَيْنَيْنِ بِلي بَض. أو على الأَقَلِّ هٰذا ما كانَ يُوحي به مَظْهَرُهُ وجانِبٌ من طَبيعَتِهِ ، إلّا بَعْضَ اخْتِلافاتٍ ذاتِ شَأْنٍ ، سَتَنْجَلي في أَثْناءِ رِوايَةِ هٰذِهِ القِصَّةِ.





كانَ بِلي بَض (أو بَض الصَّغير كما صارَ يُعْرَفُ فيما بَعْدُ) ، في الحادِيَةِ والعِشْرينَ من عُمْرِهِ ، كَشّافًا في إحْدى سُفُنِ البَحْرِيَّةِ الإنْكليزيَّةِ . كانَ ذٰلِكَ في العَقْدِ الأَخيرِ مِنَ القَرْنِ الثّامِنَ عَشَرَ . وقد حَدَثَ قُبَيْلَ بَدْءِ قِصَّتِنا هٰذِهِ أنْ أُجْبِرَ بِلي على تَرْكِ سَفينَتِهِ التِّجارِيَّةِ «حُقوقُ الإنْسانِ» والالْتِحاقِ بالسَّفينَةِ الحَرْبِيَّةِ «س ج بَليبوتَنْت» . والحَرْفانِ س ج يَعْنِيانِ : سَفينَةَ جَلالَتِهِ . وكانَتْ «سَفينَةُ جَلالَتِهِ» تِلْكَ قَدْ أَبْحَرَتْ دونَ أنْ يَكْتَمِلَ عَدَدُ بَحّارَتِها ، وهو أَمْرٌ لم يَكُنْ مُسْتَغْرَبًا في أَثْناءِ الحُروبِ الّتي كانَتْ تَقَعُ آنَذاكَ بَيْنَ بَريطانيا وفَرَنْسا .



وكانَ المُلازِمُ راتْكْلِف ، وهو من ضُبّاطِ «س ج بَليبوتَنْت» ، يَجولُ بَيْنَ السُّفُنِ التِّجارِيَّةِ بَحْثًا عن بَحّارَةٍ يَصْلُحونَ لِلسُّفُنِ الحَرْبِيَّةِ . وحالَما وَقَعَتْ عَيْناهُ على بِلي في سَفينَةِ «حقوقُ الإنْسانِ» قَرَّرَ اخْتِيارَهُ ، لِما رَأى فيه من طَلْعَةٍ بَهِيَّةٍ وقُوَّةٍ جَسَدِيَّةٍ . لم يُبْدِ بِلي احْتِجاجًا ! وقد أَدْهَشَ ذٰلِكَ الشَّرِكَةَ التِّجارِيَّةَ الّتي تَمْتَلِكُ السَّفينَةَ ، لٰكِنّه مَلَأَ قَلْبَ الضّابِطِ الجَوّالِ بالرِّضى والسَّعادَةِ . والواقِعُ أنّ الاحْتِجاجَ لم يَكُنْ ذا نَفْعٍ ، فالحُكومَةُ البَريطانِيَّةُ كانَتْ قد أَقَرَّتْ قانونًا يُبيحُ التَّجْنيدَ الإجْبارِيَّ طَوالَ مُدَّةِ الحَرْبِ .

فاجَأَ هٰذا الإذْعانُ قُبْطانَ «حُقوقُ الإنْسانِ» ، فأَلْقى على البَحّارِ نَظْرَةَ عِتابٍ صامِتَةً . كانَ القُبْطانُ صادِقًا وإنْسانِيًّا ، ورَجُلَ بَحْرٍ مُقْتَدِرًا ، وجِدِّيًّا في تَحَمُّلِ مَسْؤولِيّاتِهِ .

تَوَجَّهَ بِلي بَض إلى عَنْبَرِ النَّوْمِ لِيَجْمَعَ حاجاتِهِ. ودَخَلَ المُلازِمُ راتْكْلِف إلى قَمْرَةِ القُبْطانِ وصَبَّ لِنَفْسِهِ كوبًا مِنَ العَصيرِ. فصَبَّ القُبْطانُ أَيْضًا كوبًا لِنَفْسِهِ ، كما تَقْضي أُصولُ اللِّياقَةِ ، لٰكِنَّه امْتَنَعَ عن مُشارَكَتِهِ الشَّرابَ. فقد كانَتْ خَسارَتُهُ بِلي بَض تُثْقِلُ قَلْبَهُ.

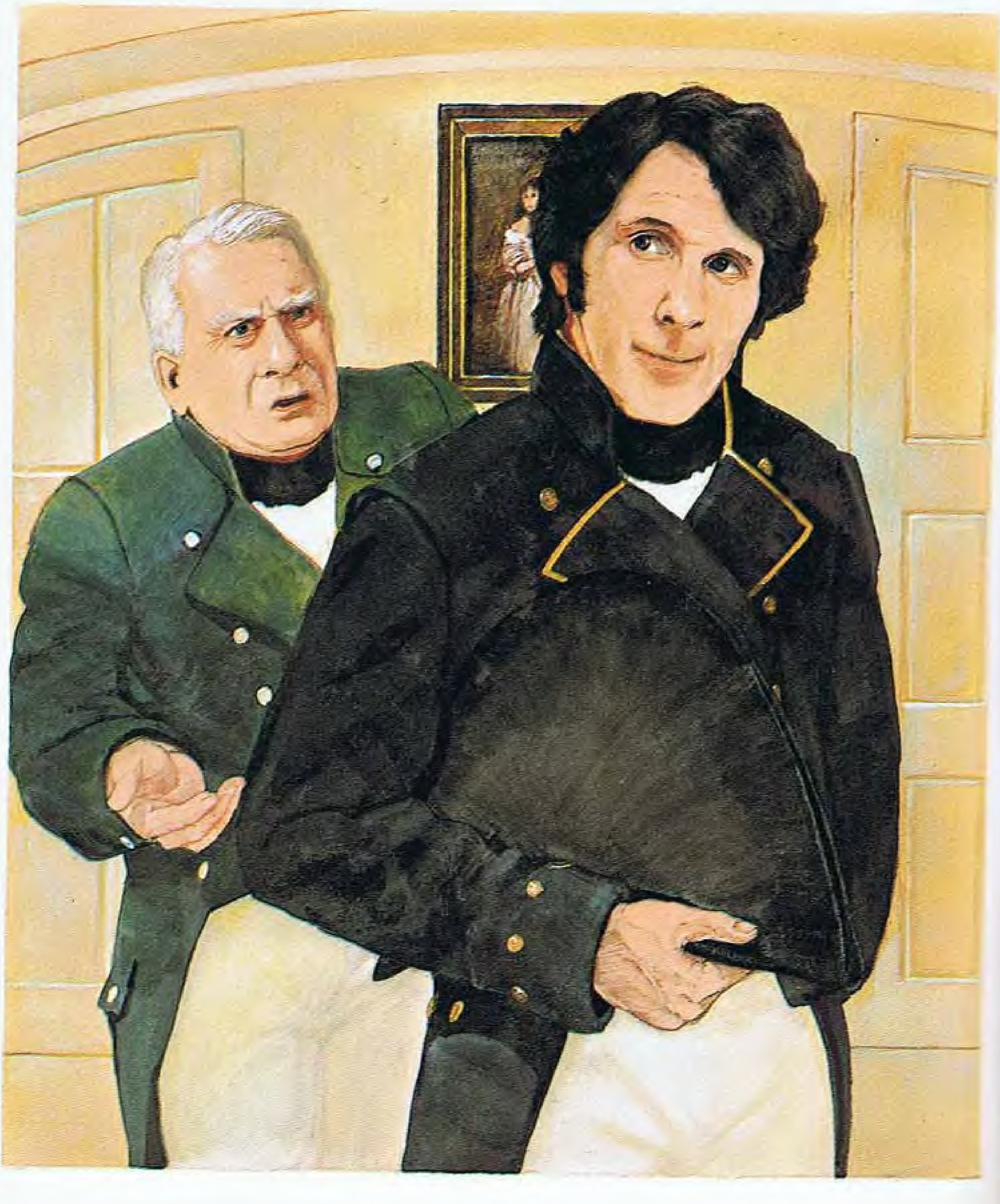
قالَ : «أَيُّها المُلازِمُ ، ستَأْخُذُ أَفْضَلَ رَجُلٍ عِنْدي – إنَّه جَوْهَرَةٌ بَيْنَ بَحّارَتي.»

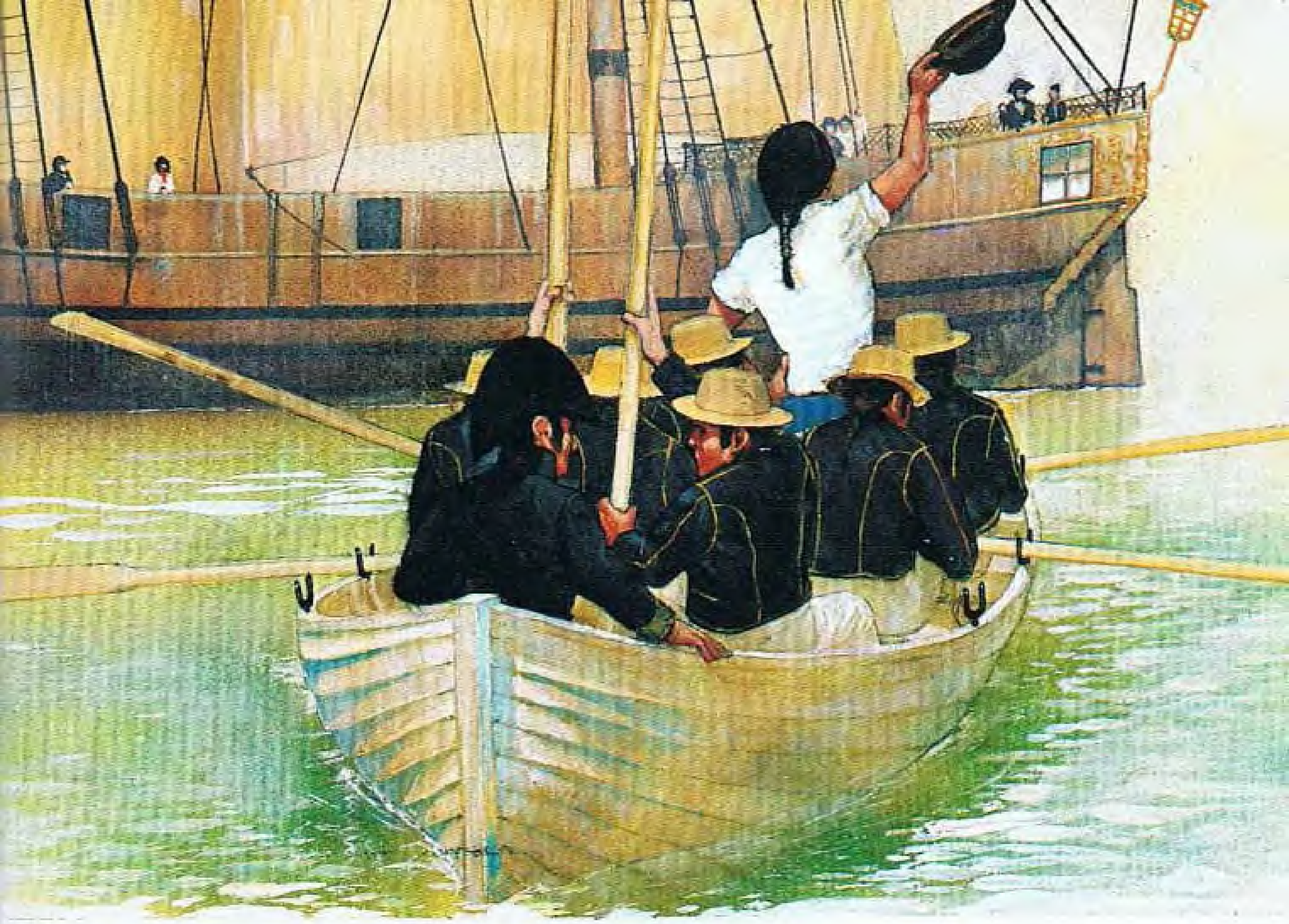
أَجابَ الضّابطُ ، وهو يُنْهي كوبَ العَصيرِ : «نَعَمْ ، أَعْرِفُ ذٰلِكَ. أَعْرِفُ ذٰلِكَ. أنا آسِفٌ.»

تابَعَ القُبْطانُ كَلامَهُ قائِلًا : «عَفْوَكَ يا سَيِّدي ، إنَّكَ لا تَعْرِفُ. أَتَعْلَمُ أنَّ المُشاجَراتِ ، قَبْلَ الْتِحاقِ هٰذا الشّابِّ بسفينَتي ، لم تكُنْ تَنْقَطِعُ؟ كانَتْ تِلْكَ أَيّامًا عَصيبَةً حَقًّا. لم أَكُنْ أَعْرِفُ كَيْفَ أُديرُ سَفينَتي. ثمّ جاءَ بِلي فحازَ على مَحَبَّةِ الجَميعِ واحْتِرامِهِمْ ، وسادَ السَّلامُ أَخيرًا سَفينَتي. إلّا أنَّ زَعيمَ البَحّارَةِ المَعْروفَ باسْمِ «الأَحْمَرِ» لم يَرُقْ له ذٰلِكَ. فراحَ يَسْخَرُ من بِلي أَمامَ البَحّارَةِ الآخَرينَ ، ولم يَأْبَهْ به بِلي أَوَّلَ الأَمْرِ. ثمّ حَدَثَ أخيرًا أنْ تَجَرَّأَ «الأَحْمَرُ» ولَكَمَهُ على صَدْرِهِ لَكْمَةً مُهينَةً. فلَطَمَهُ بِلي ، بِسُرْعَةِ البَرْقِ ، لَطْمَةً واحِدَةً أَوْقَعَتْهُ أَرْضًا. ومُنْذُ ذٰلِكَ اليَوْمِ أَحَبَّ «الأَحْمَرُ» بِلي كما يُحِبُّ الوَلَدُ أَباهُ. أَتُصَدِّقُ ذٰلِكَ؟ أَحَبّوهُ جَميعًا. بل إنَّ بَعْضَهُمْ باتَ يَغْسِلُ له ثِيابَهُ ويُصْلِحُها ، حتّى صِرْنا أَشْبَهَ بأُسْرَةٍ واحِدَةٍ كَبيرَةٍ وسَعيدَةٍ. وها أَنْتَ الآنَ تَأْخُذُ بِلي منّي... آهِ ، يا حَضْرَةَ المُلازِمِ ، أَنْتَ تَأْخُذُ جَوْهَرَةَ بَحّارَتي. أَنْتَ تَأْخُذُ منّي صانِعَ السَّلامِ!»

بَدا الابْتِهاجُ على الضّابِطِ وهو يُصْغي بِانْشِراحٍ ، وقالَ : «أُكَرِّرُ لكَ أَسَفي.

لٰكِنْ تَشَجَّعْ ! اِمْسَحْ عن وَجْهِكَ هٰذِهِ الكَآبَةَ ، يا رَجُلُ. سَيَفْرَحُ جلالَتُهُ عِنْدَما يَعْلَمُ ، أنَّه في الأَوْقاتِ العَصيبةِ هٰذِهِ ، وَجَدْنا قُبْطانًا واحِدًا على الأَقَلِّ يَتَخَلّى عن مِثْلِ هٰذا البَحّارِ بِطيبَةِ خاطِرٍ.»





دَفَعَ المُلازِمُ قارِبَهُ مُبْتَعِدًا هو وبِلي عن سَفينَةِ «حُقوقُ الإنْسانِ». لٰكِنْ بَيْنَما كانَ قارِبُ التَّجْذيفِ يَتَّجِهُ صَوْبَ السَّفينَةِ الحَرْبيَّةِ القَريبَةِ، هَبَّ المُجَنَّدُ الجَديدُ واقِفًا، ولَوَّحَ بِطاقِيَّتِهِ لِرِفاقِهِ البَحّارَةِ مُوَدِّعًا إيّاهُمْ. وكانَ رِفاقُهُ يُراقِبونَهُ صامِتينَ، وقد تَمَلَّكَهُمُ الحُزْنُ لِرَحيلِهِ. ثُمّ حَيّا بِلي السَّفينَةَ أَيْضًا وصاحَ: «وَداعًا أَنْتِ أَيْضًا أَيَّتُها العَجوزُ، يا حُقوقَ الإنْسانِ».

زَمْجَرَ المُلازِمُ آمِرًا: «اُقْعُدْ، يا رَجُلُ!» وكانَ بِذٰلِكَ يُمارِسُ الحَقَّ الّذي تُؤَهِّلُهُ له رُتْبَتُهُ. لٰكِنّه وَجَدَ صُعوبَةً في كَتْمِ ابْتِسامَةٍ.

اُعْتُبِرَ المُجَنَّدُ الجَديدُ على مَتْنِ سَفينَةِ «بليبوتَنْت» بَحّارًا مُقْتَدِرًا، وعُيِّنَ كَشّافًا فَوْقَ صاري الميَمْنَةِ. وسُرْعانَ ما أَلِفَ عَمَلَهُ الجَديدَ، وتَعَلَّقَ به رِفاقُهُ الجُدُدُ وأَحَبّوا فيه وَداعَتَهُ وانْشِراحَهُ الدّائِمَ. وعلى الرُّغْمِ مِنَ الاِسْتِقْبالِ الحَسَنِ

الّذي وَجدَهُ عِندَ بَحّارَةِ السَّفينةِ الحَرْبيَّةِ الأَشِدّاءِ ، فإنّه لم يَكُنْ مِنَ المُسْتَغْرَبِ أنْ يُلاقِيَ بَعْضَ الصُّعوبَةِ في الإنْتِقالِ المُفاجِئِ إلى حَياتِهِ الجَديدَةِ. لقد كانَ بَحّارَةُ السَّفينَةِ الحَرْبيَّةِ أَوْسَعَ اطّلاعًا من رِفاقِهِ السّابِقينَ على أَغْراضِ الدُّنْيا . ولو أنّه انْساقَ مَعَ العَبَثِ والنَّزَواتِ لَوَجَدَ نَفْسَهُ مُنْغَمِسًا في الشُّؤونِ الدُّنْيَوِيَّةِ. لٰكِنَّ حَياتَهُ لم تَعْرِفْ تَغَيُّرًا يُذْكَرُ. ولم يَلْحَظْ بِلي الإنْطِباعَ الحَسَنَ الّذي تَرَكَهُ في نُفوسِ ضُبّاطِهِ الّذين أُعْجِبوا بِبَراءَتِهِ ومَظْهَرِهِ النَّبيلِ . وبَدا كأنَّ اقْتِدارَهُ كَبَحّارٍ لا يَتَّفِقُ مَعَ وَجْهِهِ الوَسيمِ الّذي لَوْلا سُمْرَتُهُ الدّاكِنَةُ لَكانَ أَشْبَهَ بِوُجوهِ الفَتَياتِ . وزادَ الأَمْرَ غُموضًا أنّه عِنْدَما سُئِلَ في السَّفينَةِ الحَرْبيَّةِ عن مَكانِ وِلادَتِهِ قالَ بِانْشِراحٍ :

«أَرْجوكَ ، يا سَيِّدي ، لا أَعْرِفُ .»

أَجْفَلَ الضّابِطُ الّذي كانَ يُثْبِتُ أَقْوالَهُ في سِجِلِّ البَحّارَةِ ، قائِلًا : «أَلا تَعْرِفُ أَيْنَ وُلِدْتَ؟ مَنْ كانَ أَبوكَ؟»

أَجابَ بِلي : «اللهُ أَعْلَمُ !»

صُعِقَ الضّابِطُ لِتِلْكَ العَفْوِيَّةِ في إجاباتِ بِلي ، فقالَ : «أَتَعْرِفُ شَيْئًا عن وِلادَتِكَ؟»

أَجابَ بِلي : «لا يا سَيِّدي. لٰكِنّي سَمِعْتُ أنَّ بَعْضَ النّاسِ وَجَدوني في سَلَّةٍ مُبَطَّنَةٍ بِالحَريرِ ، ومُعَلَّقَةٍ على مِطْرَقَةِ بابٍ من أَبْوابِ مَدينَةِ بْرِسْتُل.»

قالَ الضّابِطُ وهو يُلْقي رَأْسَهُ إلى الوَراءِ ويُدَقِّقُ النَّظَرَ في المُجَنَّدِ الجَديدِ : «تَقولُ ، وَجَدوكَ؟ ونِعْمَ ما وَجَدوا ! لَيْتَهُمْ وَجَدوا كَثيرينَ من أَمْثالِكَ. فأُسْطولُ جَلالَتِهِ في أَمَسِّ الحاجَةِ إِلَيْهِمْ.»

كانَ بلي ، كما رَآهُ البَحّارَةُ ، أُميًّا - لا يَعْرِفُ حتّى كَيْفَ يَقْرَأُ أو يَكْتُبُ اسْمَهُ. على أَيِّ حالٍ ، فإنّه كانَ ، ككَثيرينَ من رِفاقِهِ البَحّارَةِ ، يُغَنّي ويَتَمَتَّعُ بِصَوْتٍ موسيقِيٍّ رَخيمٍ. وكانَ من نَتيجَةِ حَياتِهِ الطَّويلَةِ في البَحْرِ أنْ قَلَّتْ مَعْرِفَتُهُ بالمُشْكِلاتِ الّتي قد يُواجِهُها الإنْسانُ في البَرِّ. وظَلَّتْ طَبيعَتُهُ البَسيطَةُ العَفْوِيَّةُ بَعيدَةً عنِ الزُّخْرُفِ والتَّعْقيدِ. ويُمْكِنُ اعْتِبارُهُ ، مِنْ حَيْثُ أَوْصافُهُ وأَخْبارُهُ ، واحِدًا من ذَوي البَراءَةِ القَلائِلِ الّذينَ كانوا لا يَزالونَ على وَجْهِ هٰذِهِ البَسيطَةِ.



على أنّه كانَ لِبلي ، مَعَ كُلِّ هٰذا الجَمالِ والفُتُوَّةِ وهٰذِهِ البَراءَةِ والعَفْوِيَّةِ ، عَيْبٌ بَسيطٌ واحِدٌ. فإنّه وإنْ كانَ في أَوْقاتِ الخَطَرِ مِثالَ البَحّارِ الصّامِدِ ، فقد كانَ صَوْتُهُ يَتَحَوَّلُ ، تَحْتَ ضَغْطِ الانْفِعالِ الشَّديدِ ، إلى فَأْفَأَةٍ خَطيرَةٍ.

مِنَ الضَّروريِّ ، في هٰذِهِ المَرْحَلَةِ من قِصَّتِنا ، أنْ نَرْوِيَ أَحْداثًا جَرَتْ في البَحْرِيَّةِ البَريطانِيَّةِ قَبْلَ الْتِحاقِ بِلي بها. فقد حَدَثَ في العامِ ١٧٩٧ ، أَيْ قُبَيْلَ الْتِحاقِ بِلي بالأُسْطولِ البَريطانِيِّ ، تَمَرُّدانِ في ذٰلِكَ الأُسْطولِ : واحِدٌ في سْبِتْهِد والآخَرُ في نور. وجاءَ التَّمَرُّدانِ نَتيجَةَ الظُّروفِ الصَّعْبَةِ الّتي كانَ البَحّارَةُ يُواجِهونَها ، وبِسَبَبٍ من قَساوَةِ بَعْضِ الضُّبّاطِ. فكانَ أنْ هاجَتِ الأُمَّةُ البَريطانِيَّةُ ، الّتي كانَتْ تَعْتَمِدُ اعْتِمادًا كَبيرًا على تَفَوُّقِ أُسْطولِها لِلدِّفاعِ عَنِ الوَطَنِ.

وقد تَوَقَّفَ التَّمَرُّدُ في سْبِتْهِد بَعْدَ أنْ أُجيبَ المُتَمَرِّدونَ إلى بَعْضِ مَطالِبِهِمْ. أمّا التَّمَرُّدُ في نور فكانَ أَوْسَعَ انْتِشارًا وأَشَدَّ خَطَرًا. ولم يَعُدِ المُتَمَرِّدونَ إلى عَمَلِهِمْ إلّا بِفَضْلِ روحِهِم النَّبيلَةِ العالِيَةِ. فقد تَوَجَّهَ الأُلوفُ مِنْهُمْ لِيُشارِكوا في القِتالِ في المَعْرَكَتَيْنِ الكُبْرَيَيْنِ اللَّتَيْنِ جَرَتا في أبي قير والطَّرَفِ الأَغَرِّ. وكانَ أنْ نالوا صَفْحًا عن تَمَرُّدِهِمْ.

كانَ ضُبّاطُ السُّفُنِ الحَرْبِيَّةِ ، بَعْدَ ذَيْنِكَ التَّمَرُّدَيْنِ الخَطيرَيْنِ وقَبْلَ المَعْرَكَتَيْنِ الكُبْرَيَيْنِ المَذْكورَتَيْنِ ، حَريصينَ على إحْباطِ كُلِّ مُحاوَلَةِ تَمَرُّدٍ في مَهْدِها. وسادَ بَيْنَهُمْ جَوٌّ مِنَ الاحْتِراسِ والحَذَرِ ، وراحوا يُراقِبونَ بَحّارَتَهُمْ ويَسْتَرِقونَ السَّمْعَ إلى تَمْتَماتِ المُتَذَمِّرينَ مِنْهُمْ وهَمَساتِهِمْ ، ويُحْصونَ عَلَيْهِمْ حَرَكاتِهِمْ وسَكَناتِهِمْ.

لكِنْ لم يَكُنْ على مَتْنِ سفينَةِ بَليبوتَنْت ما يُشيرُ إلى تمَرُّدٍ وَشيكِ الوُقوعِ. فقد كانَ الجَوُّ جَوَّ انْضِباطٍ، لكِنَّهُ انْضِباطٌ مُتَّسِمٌ بروحِ الانْشِراحِ. وكانَ الفَضْلُ في ذلِكَ يَعودُ إلى شَخْصيَّةِ إدْوَرْد ڤير، قُبْطانِ السَّفينَةِ.

كانَ القُبْطانُ عازِبًا، في الأَرْبَعينَ من عُمْرِهِ. وكانَ رَجُلَ بَحْرٍ مُتَأَلِّقًا، اكْتَسَبَ في عَمَلِهِ خِبْرَةً واسِعَةً، واشْتَرَكَ في مَعارِكَ كَثيرَةٍ. وقد أَبْلى في الحُروبِ بَلاءً حَسَنًا، وعُرِفَ عنه اهْتِمامُهُ بِمَصْلَحَةِ بَحّارَتِهِ. على أنّه لم يَكُنْ يَتسامَحُ قَطُّ بأَدْنى تَفْريطٍ في الانْضِباطِ.

وكانَ القُبْطانُ ڤير، عَدا عن خَصائِصِهِ الفَريدَةِ كَضابِطٍ بَحْريٍّ، ذا شَخْصِيَّةٍ فَذَّةٍ. قد يَتَّفِقُ أَنْ يَكونَ البَحّارَةُ خالينَ من كُلِّ عَمَلٍ فلا يَكونُ أَمامَهُمْ



إلّا النَّوْمُ أَوِ الخَوْضُ في الأَقاويلِ. في أَوْقاتِ الرّاحَةِ هٰذِهِ كانَ القُبْطانُ يَلْجَأُ إلى القِراءَةِ. وكانَ يَصْطَحِبُ معه في كُلِّ رِحْلَةٍ جَديدَةٍ عَدَدًا كَبيرًا مِنَ الكُتُبِ. وهٰكَذا فإنّ أَوْقاتَ الرّاحَةِ والفَراغِ الّتي ينالُ القَباطِنَةُ قِسْطًا منها، حتّى في أَوْقاتِ الحَرْبِ، لم تكُنْ عِنْدَ القُبْطانِ ڤير أَوْقاتَ ضَجَرٍ. وكانَ ضُبّاطُهُ، لِذٰلِكَ، يَرَوْنَهُ، على الرُّغْمِ من شَعْبيَّتِهِ، رَجُلًا يَنْأى بِنَفْسِهِ عنِ الآخرينَ. والواقِعُ، أنّ الّذينَ عَرَفوهُ مَعْرِفَةً حَميمَةً كانوا قِلَّةً.

ما مِن حاجَةٍ لِتَفْصيلِ القَوْلِ في ضُبّاطِ السَّفينَةِ الّذينَ كانوا بإمْرَةِ القُبْطانِ ڤير. إلّا أنّه لا بُدَّ من ذِكْرِ شَيْءٍ عن واحِدٍ منهم هو جون كْلاغَرْت، ضابِطُ السِّلاحِ، لِلدَّوْرِ الّذي لَعِبَهُ في أَحْداثِ هٰذِهِ القِصَّةِ.

كانَتْ مُهِمَّةُ ضابِطِ السِّلاحِ على مَتْنِ السُّفُنِ الحَرْبيَّةِ، في الأَصْلِ، تَدْريبَ رِجالِهِ على اسْتِعْمالِ السَّيْفِ. لٰكِنْ مَعَ تَطَوُّرِ سِلاحِ المِدْفَعيَّةِ، أَخَذَ عَمَلُ المُدَرِّبِ يَتَقَلَّصُ حتّى باتَ أَشْبَهَ بِعَمَلِ ضابِطِ الشُّرْطَةِ. فإذا مُهِمَّتُهُ هي حِفْظُ النِّظامِ بَيْنَ البَحّارَةِ، وهي مُهِمَّةٌ قَلَّما كانَتْ مَشْكورَةً.



كانَ كْلاغَرْت رَجُلًا طَويلًا في نَحْوِ الخامِسَةِ والثَّلاثينَ من عُمْرِهِ. وكانَ له ذَقَنٌ ناتِئٌ جَعَلَهُ يَبْدو أَقْرَبَ إلى مُعَلِّمِ مَدْرَسَةٍ منه إلى ضابِطٍ بَحْرِيٍّ ثانَوِيٍّ. كانَ وَجْهُهُ شاحِبًا، زادَ في بُروزِ شُحوبِهِ وُجوهُ البَحّارَةِ من حَوْلِهِ، وكانَتْ حَمْراءَ مُتَوَرِّدَةً أوسَمْراءَ داكِنَةً. وعلى الرَّغْمِ من أنّ شُحوبَهُ لم يَكُنْ مُنَفِّرًا، فقد كانَ يَدُلُّ على أنّ في بِنْيَةِ ذلِكَ الضّابِطِ وفي دَمِهِ شَيْئًا غَيْرَ عادِيٍّ. وكانَ مُثَقَّفًا يَبْدولِمَنْ لا يَعْرِفُهُ ذا مَرْكَزٍ اجْتِماعِيٍّ رَفيعٍ. لم يَكُنْ أَحَدٌ يَعْرِفُ شَيْئًا عن حياتِهِ الماضِيَةِ، لكِنْ كانَ في لَهْجَتِهِ أَثَرٌ طَفيفٌ من لُكْنَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ.

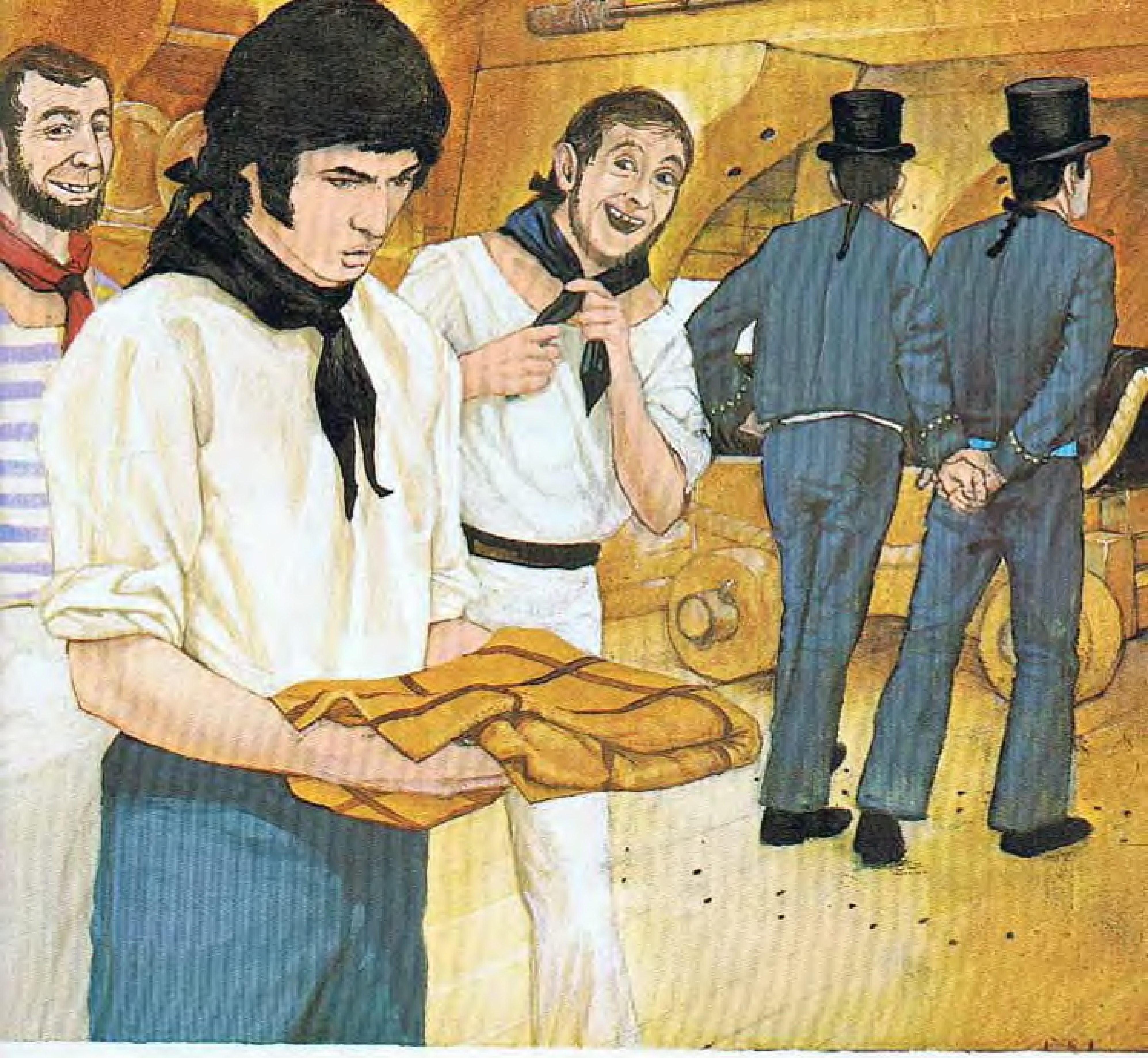
سَرَتْ إشاعاتٌ بَيْنَ البَحّارَةِ تُفيدُ أنّ كْلاغَرْت فَرَنْسِيُّ الأَصْلِ، هاجَرَتْ أُسْرَتُهُ إلى إنْكِلْترا عِنْدَما كانَ طِفْلًا، وأنّه أَيْضًا الْتَحَقَ بالبَحْرِيَّةِ لِيَتَجَنَّبَ فَضيحَةً. لم تَتَجاوَزْ هٰذِهِ الإشاعاتُ نِطاقَ الإشاعاتِ. أمّا كْلاغَرْت فقد ظَلَّ على صَمْتِهِ، ولم يَكْشِفْ شَيْئًا من حياتِهِ الماضِيَةِ لِأَحَدٍ.

كانَ بِلي بَض سَعيدًا بِعَمَلِهِ فَوْقَ مِنَصَّةِ الصّاري. فكَشّافو الصّاري يُخْتارونَ لِفُتُوَّتِهِمْ ورَشاقَتِهِمْ. وعِنْدَما يَكونُ الواحِدُ منهم خالِيًا مِنَ العَمَلِ فَوْقَ الصّاري، يَجْلِسُ لِيَسْتَريحَ، فيُسْنِدُ ظَهْرَهُ إلى الأَشْرِعَةِ الصُّغْرى المَلْفوفَةِ وكأنّها الوِسادَةُ، ويَخوضُ مَعَ رِفاقِهِ في الأَقاويلِ. وكانوا يَرْوون قِصَصَ البَحْرِ ويَتَسَلَّوْنَ من مَكانِهِمِ الشّاهِقِ بِمُراقَبَةِ نَشاطاتِ زُمَلائِهِمْ فَوْقَ ظَهْرِ السَّفينَةِ.

كان بِلي راضِيًا بِذٰلِكَ المُجْتَمَعِ. لم يُسِئْ إلى إنْسانٍ، وكانَ دائِمَ اليَقَظَةِ، سَريعًا في تَلْبِيَةِ أَوامِرِ الضُّبّاطِ. هٰذِهِ اليَقَظَةُ كانَتْ طَبْعًا فيه، لكِنّه ازْدادَ يَقَظَةً بَعْدَ أنْ رَأى بِعَيْنَيْهِ قِصاصَ المُذْنِبينَ. فقد حَدَثَ أنْ تَغَيَّبَ أَحَدُ المُبْتَدِئينَ الشَّبابِ عن مَرْكَزِهِ في أَثْناءِ مُناوَرَةٍ مُعَقَّدَةٍ، ونَتَجَ عن تَغَيُّبِهِ تَأَخُّرٌ

خَطيرٌ. لم يَكُنْ بِلي جَبانًا ، لٰكِنّه عِنْدَما شاهَدَ عَمَلِيَّةَ الجَلْدِ ، ورأى الدَّمَ يَسيلُ من ظَهْرِ الشّابِّ ، قَرَّرَ ألّا يُعْطِيَ أَبَدًا ، ولا لِأَيٍّ كانَ ، أَدْنى فُرْصَةٍ لإنْزالِ مِثْلِ ذٰلِكَ القِصاصِ به .





وَلَشَدَّ ما أَدْهَشَهُ ، لِذٰلِكَ ، وشَغَلَ بالَهُ ، أنْ بَدَأَ يَتَلَقّى انْتِقاداتٍ تَتَعَلَّقُ بِطَيِّ ثِيابِهِ أو نَظافَةِ سَريرِهِ الشَّبَكِيِّ وتَرْتيبِهِ. وكانَ عُرَفاءُ السَّفينَةِ المُوْلَجونَ بِمُراقَبَةِ هٰذِهِ الأُمورِ يَعْمَلونَ بِإِمْرَةِ ضابِطِ السِّلاحِ. ولم يَكُنْ بِلي يَفْهَمُ تَصَرُّفَهُمْ ، فقد كانَ شَديدَ الاهْتِمامِ بِشُؤونِهِ. وقد أَبْدى رِفاقُهُ ، عِنْدَما حَدَّثَهُمْ بِالأَمْرِ ، شَكَّهُمْ في ما يَقولُ. ولَعَلَّهُمْ وَجَدوا تَسْلِيَةً في ما كانَ يَبْدو على وَجْهِهِ من قَلَقٍ ظاهِرٍ. فَلَطالَما ضَحِكوا عَلَيْهِ لِدِقَّتِهِ الفائِقَةِ في تَنْفيذِ الأَوامِرِ.

وكانَ على مَتْنِ السَّفينَةِ بَحّارٌ عَجوزٌ أُعْفِيَ ، بِسَبَبِ تَقَدُّمِهِ في السِّنِّ ، مِنَ الأَعْمالِ الشّاقَّةِ. فعُيِّنَ ، لِذٰلِكَ ، مُراقِبًا لِمَخْزَنِ العُدَّةِ. ولم تكُنْ وَظيفَتُهُ تَتَطَلَّبُ منه إلّا العِنايَةَ بالمَخْزَنِ والمُراقَبَةَ. وكانَ البَحّارُ العَجوزُ، واسْمُهُ دانسْكِر ، قد قَضى سِنينَ كَثيرَةً في الخِدْمَةِ الفِعْلِيَّةِ. وقد أُعْجِبَ بلي ، مُنْذُ اللِّقاءِ الأَوَّلِ ، بِخِبْرَةِ دانسْكِر وحِكْمَتِهِ. فقَرَّرَ أَخيرًا أنْ يَذْهَبَ إِلَيْهِ لِيَشْكُوَ إِلَيْهِ حالَهُ ، وبِخاصَّةٍ أنّ العَجوزَ تَلَطَّفَ مَعَ بِلي في لِقائِهِما الأَوَّلِ وأَسْماهُ تَدْليلًا : بِلي الصَّغيرَ.

كانَ دانسْكِر يَجْلِسُ وَحيدًا على صُنْدوقٍ. حَيّا الشّابَّ بِصَوْتٍ هادِئٍ ، كما هي عادَتُهُ ، واسْتَمَعَ إلى شَكْواهُ بِعَطْفٍ وصَبْرٍ. وعِنْدَما أَنْهى الكَشّافُ حَديثَهُ راحَ دانسْكِر يَفْرُكُ نَدْبَةً طَويلَةً بَيْضاءَ في وَجْهِهِ ، وقد بَدا عَلَيْهِ التَّأَمُّلُ والتَّفْكيرُ. وكانَتْ تِلْكَ النَّدْبَةُ أَثَرًا من ضَرْبَةِ سَيْفٍ تَلَقّاها في إِحْدى المَعارِكِ الكُبْرى ، واعْتادَ أنْ يَفْرُكَها كُلَّما غَرِقَ في تَفْكيرٍ عَميقٍ. أَخيرًا قالَ : «يا بِلي الصَّغيرُ إنّ كْلاغَرْت يُضْمِرُ لك السّوءَ.»

هَتَفَ بِلي فَجْأَةً ، وقدِ اتَّسَعَتْ عَيْناهُ دَهْشَةً وذُعْرًا : «كْلاغَرْت ! ولِمَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ؟ إنَّهُ يُسَمّيني الفَتى اللَّطيفَ. هٰكذا خَبَّروني.»

قالَ البَحّارُ العَجوزُ الذّاوي وهو يَصِرُّ بأَسْنانِهِ : «أَهٰكذا سَمّاكَ؟ إنّ لِكْلاغَرْت لِسانًا حُلْوًا.»

أَجابَ بِلي : «لَيْسَ دائِمًا. لٰكِنّ لِسانَهُ حُلْوٌ مَعي. لا أَمُرُّ به مَرَّةً إلّا ويَرْميني بِكَلِمَةٍ لَطيفَةٍ.»

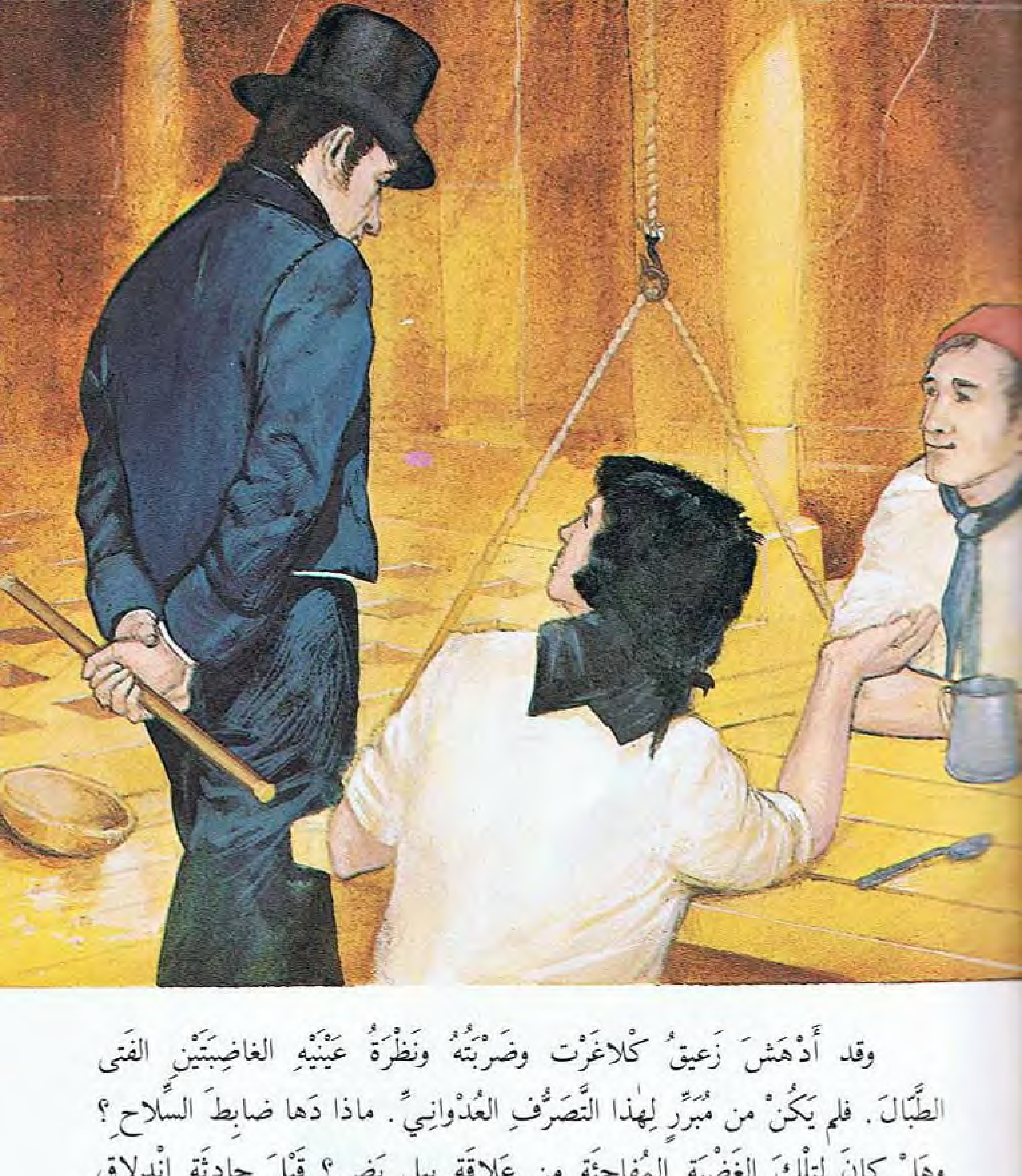
«ذٰلِكَ أنّه يُضْمِرُ لك السّوءَ ، يا بِلي الصَّغيرُ.»

أَزْعَجَتِ العِبارَةُ الأَخيرَةُ بِلي بَض ، لأنّه لم يَكُنْ يَفْهَمُ لِمَ يَحْمِلُ له كْلاغَرْت الحِقْدَ والضَّغينَةَ . لٰكِنّ دانسْكِر لم يُجِبْ على أَسْئِلَةِ بِلي ، بَلْ نَظَرَ إِلَيْهِ بِوَقارٍ ، ونَفَخَ في غَلْيونِهِ العَتيقِ الّذي لم يَكُنْ يُفارِقُ يَدَهُ .

وَقَعَتْ في اليَوْمِ التّالي حادِثَةٌ أَكَّدَتْ لِبلي أنّ شَكَّهُ في مُلاحَظاتِ دانسْكِر الغَريبَةِ في مَوْضِعِهِ . فقد حَدَثَ عِنْدَ الظَّهيرَةِ أَنْ مالَتِ السَّفينَةُ فَجْأَةً فانْدَلَقَ صَحْنُ الحَساءِ من يَدِ بِلي فَوْقَ الأَرْضِيَّةِ النَّظيفَةِ المُلَمَّعَةِ . واتَّفَقَ أَنْ كانَ كْلاغَرْت مارًّا ورَأى الحَساءَ يَسيلُ أَمامَهُ في المَمَرِّ . لم يَكُنِ الأَمْرُ ، على الصّورَةِ الّتي حَدَثَ فيها ، ذا شَأْنٍ . تابَعَ كْلاغَرْت سَيْرَهُ ، غَيْرَ أَنّه عِنْدَما عَلِمَ مَنْ دَلَقَ الحَساءَ ، ارْتَسَمَ على وَجْهِهِ غَضَبٌ شَديدٌ . ثمّ سُرْعانَ ما تَمالَكَ نَفْسَهُ ، وأَشارَ إلى الحَساءِ المُنْسَكِبِ ، وداعَبَ ظَهْرَ بِلي بِعَصًا لا تُفارِقُ يَدَهُ أَبدًا ، وقالَ بِصَوْتٍ خافِتٍ غَريبٍ :

«شَيْءٌ حُلْوٌ ، يا بُنَيَّ ! ومِنْ شابٍّ حُلْوٍ !» ثمّ تابَعَ سَيْرَهُ . فَهِمَ الجَميعُ مُلاحَظَتَهُ على أنّها نَوْعٌ من المُزاحِ ، فضَحِكوا . وشارَكَ بِلي في الضَّحِكِ بِسَعادَةٍ ، وهَتَفَ يُخاطِبُ رِفاقَهُ في الطَّعامِ قائِلًا : «أَتَرَوْنَ ؟ مَنْ يُصَدِّقُ أَنّ كْلاغَرْت يُضْمِرُ لِي سوءًا ؟»

سَأَلَ أَحَدُ البَحّارَةِ مُنْدَهِشًا : «ومَنْ قالَ إنّه يُضْمِرُ لك سوءًا ؟» بَدا شَيْءٌ مِنَ البَلاهَةِ على الكَشّافِ وهو يُسْرِعُ إلى القَوْلِ إنّ دانسْكِر فَعَلَ ذٰلِكَ . كانَ كْلاغَرْت في هٰذِهِ الأَثْناءِ يُتابِعُ سَيْرَهُ راسِمًا على وَجْهِهِ ابْتِسامَةً . واتَّفَقَ أَنّ الفَتى الطَّبّالَ اصْطَدَمَ به ، فما كانَ من كْلاغَرْت إلّا أَنْ أَهْوى عَلَيْهِ بِعَصاهُ ، وزَعَقَ به : «اِفْتَحْ عَيْنَيْكَ !»



وقد أَدْهَشَ زَعيقُ كْلاغَرْت وضَرْبَتُهُ ونَظْرَةُ عَيْنَيْهِ الغاضِبَتَيْنِ الفتى الطَّبّالَ. فلم يَكُنْ من مُبَرِّرٍ لِهٰذا التَّصَرُّفِ العُدْوانِيِّ. ماذا دَها ضابِطَ السِّلاحِ؟ وهَلْ كانَ لِتِلْكَ الغَضْبَةِ المُفاجِئَةِ من عَلاقَةٍ بِبِلي بَض؟ قَبْلَ حادِثَةِ انْدِلاقِ صَحْنِ الحَساءِ لم يَحْتَكَّ بِلي أَبَدًا بِجون كْلاغَرْت. ويَتَساءَلُ المَرْءُ عنِ السَّبَبِ الّذي يَحْمِلُ كْلاغَرْت على إضْمارِ السّوءِ لِبِلي. فلقد كانَ كْلاغَرْت في قَرارَةِ نَفْسِهِ يُضْمِرُ فِعْلًا السّوءَ له.

إنّ مُحاولَةَ الإجابَةِ عن هذا السُّؤالِ تَتطَلَّبُ مِنَ المَرْءِ أنْ يَرْجِعَ إلى اللَّحْظَةِ الّتي صَعِدَ فيها بِلي إلى سَفينَةِ بَلِيبوتَنْت ، وأنْ يَسْتَرْجِعَ النَّظْرَةَ الّتي حَدَجَهُ كْلاغَرْت بِها أَوَّلَ ما وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْناهُ . لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أنْ يَدَّعِيَ أنّه عَرَفَ ما دارَ في خَلَدِ كلاغَرْت آنَذاكَ ، لٰكِنَّ نَظْرَةَ عَيْنَيْهِ دَلَّتْ على أنّ حِقْدًا شَديدًا قد تَوَلَّدَ في قَلْبِهِ . ولم يَكُنْ لِذٰلِكَ الحِقْدِ من سَبَبٍ ، لٰكِنّه من نَوْعِ الحِقْدِ الّذي يَنْبُتُ في قَلْبِ إنْسانٍ عِنْدَما تَقَعُ عَيْناهُ على شَخْصٍ بِعَيْنِهِ ، مَهْما يَكُنْ ذٰلِكَ الشَّخْصُ مُسالِمًا وبَعيدًا عَنِ الشَّرّ .

لَعَلَّنا نَجِدُ الجَوابَ في صِفاتِ بِلي نَفْسِها ، فهوَ وَسيمٌ مُنْشَرِحٌ ومَحْبوبٌ ، وهي صِفاتٌ كانَ كْلاغَرْت يَتَمَنّى في سِرِّهِ دائِمًا أنْ يَتَحَلّى هو بها . لقد رَأى كْلاغَرْت في بِلي الشَّخْصَ الّذي حاوَلَ هو دائِمًا أنْ يَكونَهُ . حَرَمَتْهُ وَظيفَتُهُ من مَحَبَّةِ الآخَرينَ له ، ولم يُسْعِفْهُ شَكْلُهُ على الظُّهورِ بِمَظْهَرِ الوَسامَةِ



والمَهابَةِ. وحاوَلَ أنْ يُعوِّضَ عن ذٰلِكَ بالتَّأنُّقِ في اختِيارِ مَلابِسِهِ، فأشْعَرَهُ ذٰلِكَ بالزَّهْوِ والخُيَلاءِ. لٰكِنّ نَظَراتِ بِلي بَض كانَتْ نَظَراتِ أَبْطالٍ، وكانَ قَلْبُهُ يَتَّقِدُ بنارٍ أَضاءَتْ وَجْهَهُ بفِتْنَةٍ تكادُ تكونُ سِحْرِيَّةً.

ويُمْكِنُ الافْتِراضُ، في ضَوْءِ هٰذِهِ المُفارَقَةِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، أنّ عِبارَةَ ضابِطِ السِّلاحِ: «شَيْءٌ حُلْوٌ، يا بُنَيَّ! ومن شابٍّ حُلْوٍ!» هي زَلَّةُ لِسانٍ تَفْضَحُ العُقْدَةَ الّتي يُعاني منها كْلاغَرْت، والّتي أَثارَتْ حِقْدَهُ، مُنْذُ البِدايَةِ، على وَسامَةِ بِلي الفَريدَةِ.

وإلى هٰذا، فإنّه عِنْدَما وَقَعَتْ حادِثَةُ انْدِلاقِ صَحْنِ الحَساءِ، دَخَلَ في رَوْعِ كْلاغَرْت أنّ بِلي يُعَبِّرُ بِذٰلِكَ عن كُرْهِهِ له. وجاءَتْ ضِحْكَةُ بِلي كأنّما لِتُؤَكِّدَ تِلْكَ الشُّكوكَ. كانَ كْلاغَرْت واثِقًا مِنَ التَّقاريرِ الّتي كانَ يَرْفَعُها إلَيْهِ أَحَدُ عُرَفائِهِ عن تَصَرُّفاتِ بِلي والّتي تُفيدُ أنّ بِلي يَكْرَهُهُ. أمّا ذٰلِكَ العَريفُ فكانَ مَشْهورًا بَيْنَ البَحّارَةِ بِاسْمِ «صَرير». فقد كانَ صَوْتُهُ يُشْبِهُ صَريرَ المَفاتيحِ، وكانَ إلى ذٰلِكَ، ذا مَلامِحَ حادَّةٍ، يُرى وهو يَتَسَلَّلُ لِيُراقِبَ رِفاقَهُ ويَسْتَرِقَ السَّمْعَ إلَيْهِمْ، وذٰلِكَ كُلُّه جعَلَهُ مَكْروهًا بَيْنَهُمْ.

واكْتَشَفَ صَرير أنّ كْلاغَرْت لا يَحْمِلُ في قَلْبِهِ حُبًّا لِبِلي فاخْتَلَقَ لِلشّابِّ المُشْكِلاتِ الّتي أَزْعَجَتْهُ إزْعاجًا شَديدًا. كما أنّه نَقَلَ إلى كْلاغَرْت أَكاذيبَ ادَّعى فيها أنّ بِلي سَخِرَ منه أَمامَ رِفاقِهِ البَحّارَةِ.

لم يَشُكَّ ضابِطُ السِّلاحِ لَحْظَةً في صِحَّةِ تِلْكَ التَّقاريرِ، فقد كانَ يَعْرِفُ أنّ البَحّارَةَ يُطْلِقونَ عَلَيْهِ النُّعوتَ، ويَعْرِفُ أنّ ضابِطَ السِّلاحِ المُتَحَمِّسَ الغَيورَ على عَمَلِهِ يَكونُ مُعَرَّضًا لِغَيْرَةِ رِفاقِهِ منه ونُفورِهِمْ.

بَعْدَ تِلْكَ الحادِثَةِ بِأَيّامٍ وَقَعَ شَيْءٌ أَزْعَجَ بِلي بَض إِزْعاجًا فاقَ كُلَّ ما سَبَقَ. فِي إِحْدى اللَّيالي الحارَّةِ تَرَكَ الكَشّافُ سَريرَهُ الشَّبَكِيَّ، وصَعِدَ إلى مَتْنِ السَّفينَةِ لِيَتَنَشَّقَ هَواءَ البَحْرِ المُنْعِشَ. وقد غَلَبَهُ النُّعاسُ قَريبًا من ثلاثَةٍ من رِفاقِهِ النّائمينَ، فغَفا قليلًا. ثمّ أَحَسَّ بِيَدٍ تَلْمُسُ كَتِفَهُ وسَمِعَ صَوْتًا يَهْمِسُ في أُذُنِهِ قائلًا:

«أَسْرِعْ يا بِلي، اِذْهَبْ إلى غُرْفَةِ المُقَدَّمَةِ. سأُقابِلُكَ هُناكَ.» ثمّ سَمِعَ صَوْتَ خُطُواتٍ خَفيفَةٍ تَبْتَعِدُ.

لو كانَ بِلي أَطْوَلَ خِبْرَةً وأَكْثَرَ فِطْنَةً لَعادَ إلى نَوْمِهِ. لٰكِنّه، كالكَثيرينَ غَيْرِهِ من ذَوي النِّيّاتِ الحَسَنَةِ، كانَ يَكْرَهُ أَنْ يَقولَ «لا» في الحالاتِ المُفاجِئَةِ.

ولَمّا كانَ أَيْضًا فُضوليًّا بِطَبيعَتِهِ ومُحِبًّا لِلبَحْثِ والاسْتِقْصاءِ، فقد نَهَضَ مُثْقَلَ العَيْنَيْنِ بِالنُّعاسِ ومَشى صَوْبَ غُرْفَةِ المُقَدَّمَةِ. وراحَ، وهو يَجُرُّ قَدَمَيْهِ، يَتَساءَلُ عن سِرِّ تِلْكَ الدَّعْوَةِ.

وسُرْعانَ ما الْتَقى الرَّجُلانِ في زاوِيَةٍ مُظْلِمَةٍ من زَوايا الغُرْفَةِ. لم تَكُنِ السَّماءُ مُقْمِرَةً، فلم يَسْتَطِعْ بِلي أَنْ يَتَبَيَّنَ وَجْهَ الغَريبِ بِوُضوحٍ، لٰكِنَّه أَحَسَّ من هَيْئَتِهِ وطَلَّتِهِ أنّه واحِدٌ من بَحّارَةِ المُؤَخَّرَةِ.

قالَ الغَريبُ بِصَوْتِهِ الهامِسِ الحَذِرِ نَفْسِهِ: «اِسْمَعْ يا بِلي، لقد جُنِّدْتَ مُكْرَهًا، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟ أنا أَيْضًا جُنِّدْتُ مُكْرَهًا.» ثمّ سَكَتَ هُنَيْهَةً كأنّما لِيُراقِبَ أَثَرَ كَلامِهِ على المُسْتَمِعِ.



لم يَجدْ بِلي شَيْئًا يَقولُهُ ، فظَلَّ ساكِتًا . فتابَعَ الغَريبُ قائِلًا : «لَسْنا وَحيدَيْنِ في هٰذا الأَمْرِ ، فإنَّ منّا عُصْبَةً كَبيرَةً . ألا تُساعِدُ إذا كانَ لِمُساعَدَتِكَ من حاجَةٍ ؟»

قالَ بِلي ، وقدِ اسْتَيْقَظَ تمامًا : «ماذا تَعْني ؟»

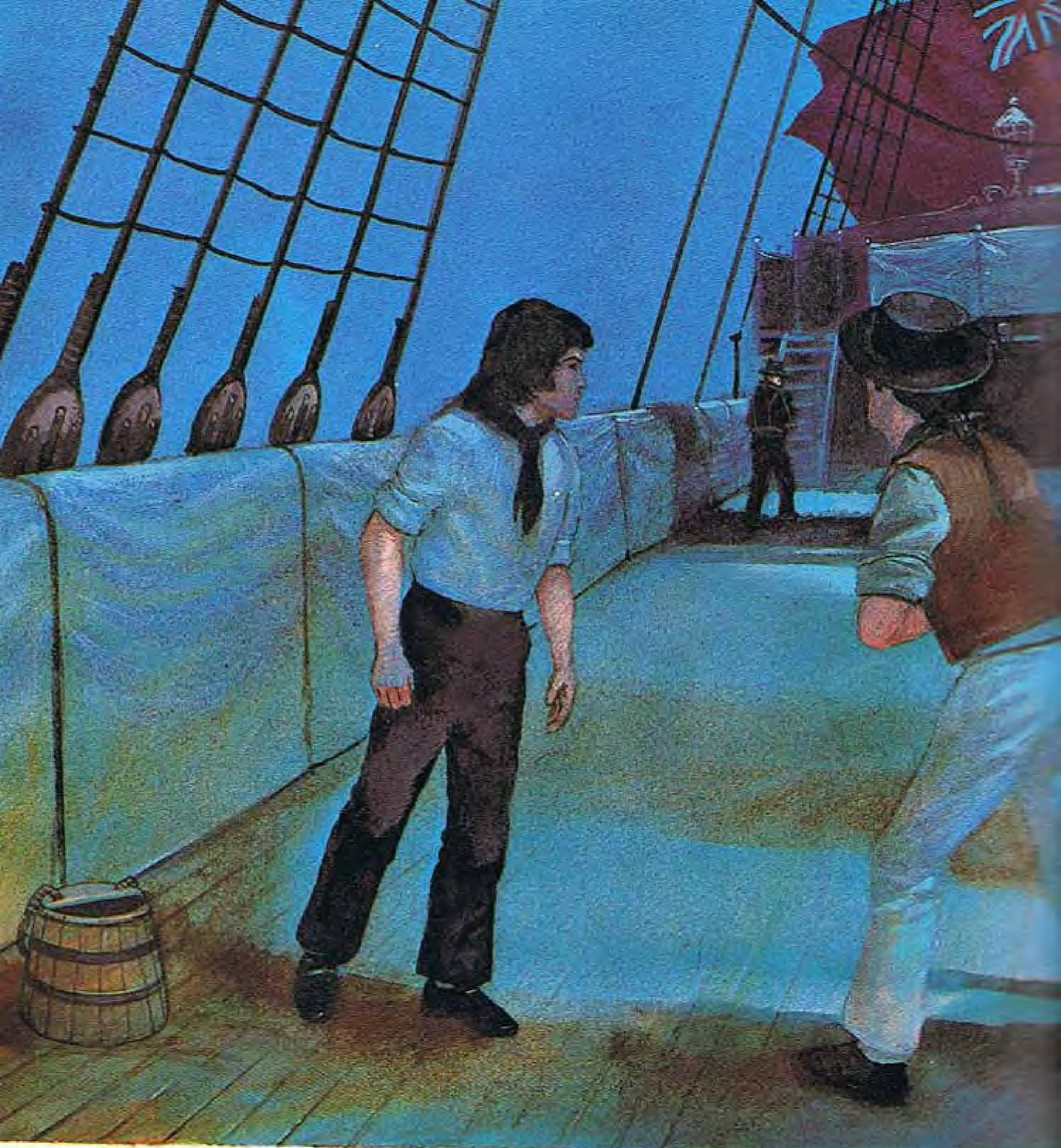
أَسْرَعَ الغَريبُ يَهْمِسُ بِصَوْتٍ مَحْمومٍ : «أُسْكُتْ ! لا تَرْفَعْ صَوْتَكَ ! أُنْظُرْ . » ومَدَّ الرَّجُلُ يَدَهُ فإذا فيها جُنَيْهانِ يِبِصّانِ بَصيصًا خافِتًا في ظَلامِ اللَّيْلِ . ثمّ قالَ : «هٰذانِ لكَ ، إذا أَنْتَ ...»

أَسْرَعَ بِلي يُقاطِعُهُ مُنْفَعِلًا ، لٰكِنْ مَعَ الانْفِعالِ بَرَزَ العَيْبُ في نُطْقِهِ ، فقالَ مُفَأْفِئًا : «اِسْ - اِسْ - اِسْمَعْ . لا أَعْرِفُ عَمْ - عَمْ - عَمّا تَتَكَلَّمُ . لكِنْ خَيْرٌ لك أنْ تَرْ - تَرْ - تَرْجِعَ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ !»

أَذْهَلَتِ المُفاجَأَةُ الغَريبَ فظَلَّ بُرْهَةً لا يَتَحَرَّكُ . وانْتَفَضَ بِلي عِنْدَئِذٍ قائِلًا : «إذا لم تَذْ - تَذْ - تَذْهَبْ فَوْرًا ، فسَوْفَ أَرْ - أَرْ - أَرْميكَ في البَحْرِ !» لم يَعُدْ من مَجالٍ لِلكَلامِ ، وأَسْرَعَ الغَريبُ الغامِضُ يَخْتَفي في الظَّلامِ .

اِرْتَفَعَ صَوْتٌ في مَكانٍ قَريبٍ يَقولُ : «مَرْحَبًا ، ما الحِكايَةُ ؟» كانَ أَحَدُ رِجالِ الغُرْفَةِ قَدِ اسْتَيْقَظَ على صَوْتِ الفَأْفَأَةِ . عَرَفَ الرَّجُلُ بِلي من هَيْئَتِهِ وصَوْتِهِ . فقالَ : «أَهٰذا أَنْتَ ، يا بِلي الصَّغيرُ؟ لا بُدَّ أنّ في الأَمْرِ ما يُقْلِقُ ، فأَنْتَ تُفَأْفِئُ .»

أَجابَ بِلي ، وقَدِ اسْتَعادَ هُدوءَهُ وسَيْطَرَتَهُ على نَفْسِهِ قائِلًا : «آهٍ ، وَجَدْتُ بَحّارًا من بَحّارَةِ المُؤَخَّرَةِ في جانِبِنا مِنَ السَّفينَةِ ، وقد طَلَبْتُ منه أنْ يَرْجِعَ من حَيْثُ أَتى .»



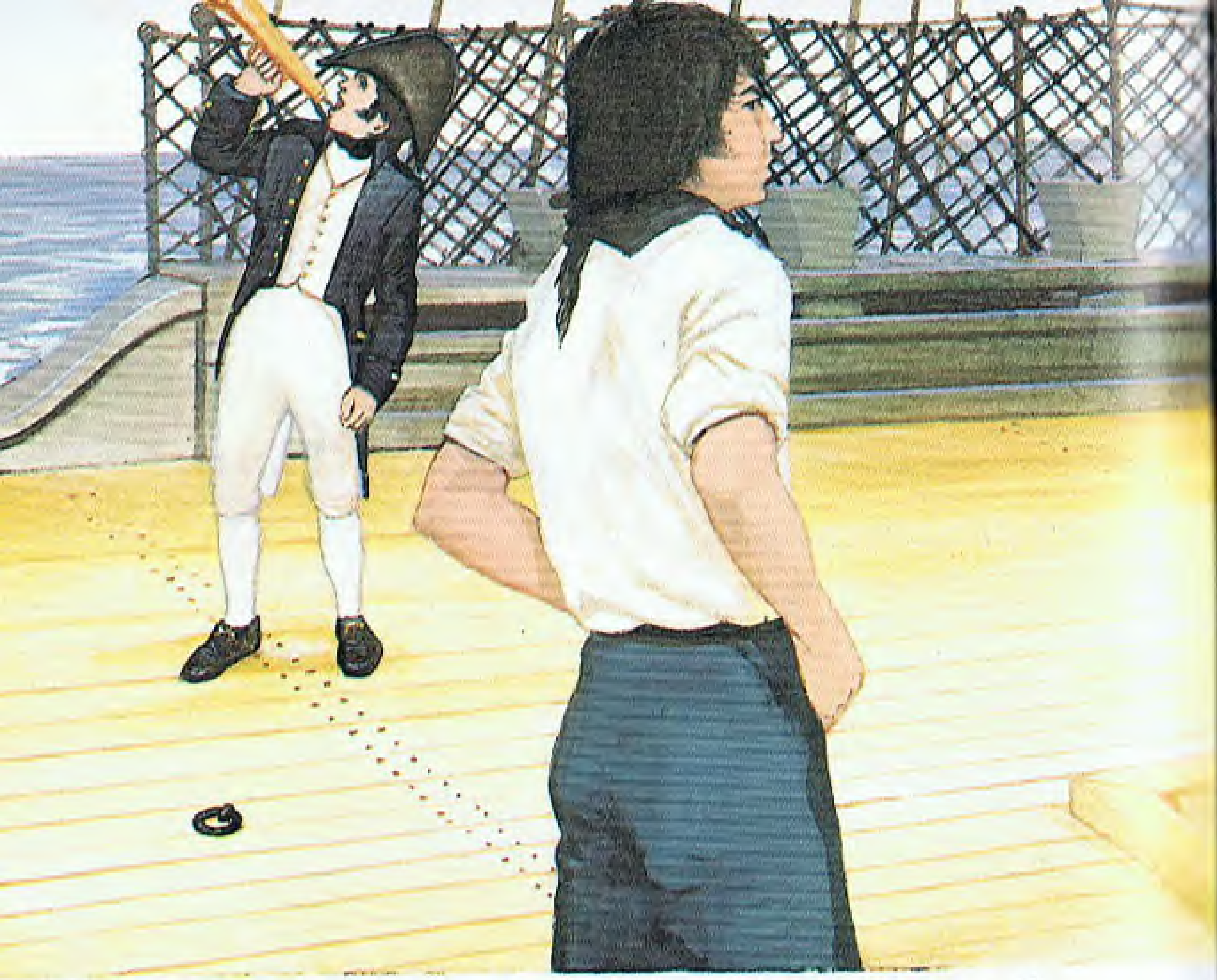
أَحْسَنَ بِلي في ما ذَكَرَهُ عن تِلْكَ الحادِثَةِ السَّريعَةِ. فرِجالُ المُقَدَّمَةِ أَكْثَرُ البَحّارَةِ غَيْرَةً على مِنْطَقَتِهِمْ. وهم يُبْغِضونَ الدَّخيلَ ، وبِخاصَّةٍ إذا كانَ من بَحّارَةِ المُؤَخَّرَةِ. وهم يَنْظُرونَ إلى هؤُلاءِ بِازْدِراءٍ ، لِأَنَّهم لا يَرْتَفِعونَ فَوْقَ الصّواري ، ولأنّ المَهارَةَ تَنْقُصُهُمْ في كَثيرٍ من شُؤونِ البَحْرِ.



أَرْبَكَ هٰذا الحادِثُ بِلي بَض إرْباكًا شَديدًا . فلم يَسْبِقْ له أنْ واجَهَ مِنْ قَبْلُ تَجْرِبَةً مُماثِلَةً ، ولا حاوَلَ أَحَدٌ قطُّ أنْ يُفاتِحَهُ بِأَمْرٍ بِمِثْلِ هٰذِهِ الطَّريقَةِ المُتَسَتِّرَةِ الماكِرَةِ ، بَلْ لم يَسْبِقْ له ، قَبْلَ تِلْكَ الحادِثَةِ ، حتّى أنْ كَلَّمَ أَحَدًا من رِجالِ المُؤَخَّرَةِ .

ما مَعْنى ذٰلِكَ ؟ وهَلِ الجُنَيْهانِ اللَّذانِ رَفَعَهُما الرَّجُلُ أمامَ عَيْنَيْهِ حَقيقِيّانِ ؟ تَتابَعَتِ الأَسْئِلَةُ في رَأْسِ الشّابِّ . فكَيْفَ يُمْكِنُ أنْ يَحْصُلَ المَرْءُ فَوْقَ سَفينَةٍ حَرْبِيَّةٍ على جُنَيْهاتٍ ، في حينِ يَصْعُبُ الحُصولُ حتّى على زِرٍّ إضافِيٍّ .

وكانَ كُلَّما ازْدادَ في الأَمْرِ تَفْكيرًا ازْدادَ حَيْرَةً وارْتِباكًا . لَم يَكُنْ يَرْغَبُ في مُواجَهَةِ الرَّجُلِ واسْتِجْوابِهِ ، فقد دَلَّهُ اشْمِئْزازُهُ الفَوْرِيُّ مِنَ التَّصَرُّفِ المُتَسَتِّرِ الماكِرِ أنَّ وَراءَ ذٰلِكَ التَّصَرُّفِ غايَةً آثِمَةً . على أنه كانَ يَتوقُ أنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَبْدو زائِرُ اللَّيْلِ ذاكَ نَهارًا .



اِتَّفَقَ في اليَوْمِ التّالي أنْ رَأى الرَّجُلَ ثانِيَةً . فَعَرَفَهُ من جِرْمِهِ أَكْثَرَ مِمّا عَرَفَهُ من وَجْهِهِ المُدَوَّرِ النَّمِشِ وعَيْنَيْهِ الزَّرْقاوَيْنِ . على أنّ بِلي لم يَكُنْ واثِقًا أنّ ذاكَ الرَّجُلَ هو غَريمُهُ فِعْلًا . فقد كانَ الرَّجُلُ يَتَبادَلُ الحَديثَ مَعَ رِفاقِهِ ويَضْحَكُ بِكَثيرٍ مِنَ العَفْوِيَّةِ والاِطْمِئْنانِ . ولم يَكُنْ يَبْدو عَلَيْهِ إطْلاقًا أنه مُثْقَلٌ بالتَّآمُرِ .

ولم يُلاحِظْ بِلي أنّ الغَريبَ كانَ قد رَآهُ يُنَقِّلُ عَيْنَيْهِ حَوْلَهُ ، فأَحْنى رَأْسَهُ تِجاهَهُ إحْناءَةَ مَوَدَّةٍ وتَقْديرٍ ، وكأنّه يَرُدُّ على نَظْرَتِهِ . وأَظْهَرَ ذٰلِكَ كأنَّ بَيْنَهُما شَيْئًا قد تَفاهَما عَلَيْهِ . ثمّ أَسْرَعَ الغَريبُ بَعْدَ ذٰلِكَ يُتابِعُ حَديثَهُ مَعَ رِفاقِهِ وكأنَّ شَيْئًا لم يَكُنْ .

اِتَّفَقَ ، بَعْدَ يَوْمٍ أوْ يَوْمَيْنِ ، أنْ مَرَّ الغريبُ بِبِلي فحيّاهُ بلُطْفٍ. وقد أَرْبَكَ الأَمْرُ بِلي إرْباكًا شَديدًا حتّى لم يَعْرِفْ ما يَقولُ ، فتابَعَ طَريقَهُ دونَ أنْ يَقولَ شَيْئًا.

اِزدادَ بِلي ارْتِباكًا وحَيْرَةً. فكَّرَ كثيرًا ، لكِنْ لم يَخْطُرْ ببالِهِ أنْ يَنْقُلَ الأَمْرَ إلى المَسْؤولينَ. ولو أنّ أَحَدًا اقْتَرَحَ عَلَيْهِ نَقْلَ الأَمْرِ لامْتَنَعَ عَنِ الأَخْذِ بِرأْيِهِ ، مُعْتَبِرًا ذلِكَ نَوْعًا مِنَ النَّميمَةِ الرَّخيصَةِ. وهكَذا كَتَمَ الأَمْرَ ، بَعْضَ الوَقْتِ ، في صَدْرِهِ.

على أنّ بِلي وَجَدَ ، ذاتَ لَيْلَةٍ ، أنّه غَيْرُ قادِرٍ على الاِسْتِمْرارِ في السُّكوتِ ، فذَهَبَ إلى دانسْكِرِ العَجوزِ ورَوى له جانبًا مِنَ القِصَّةِ.

اِسْتَمَعَ العَجوزُ إلى روايَةِ بِلي المُجْتَزَأَةِ الغامِضَةِ ، وبَدا عَلَيْهِ أنّ ما فَهِمَهُ منها أكْثَرُ مِمّا أُخْبِرَ به. وبَعْدَ أنْ أَطْرَقَ لَحْظَةً مُفَكِّرًا ، قالَ: «أَلَمْ أَقُلْ لكَ ، يا بِلي الصَّغيرُ؟»

سَأَلَ بِلي: «قُلْتَ ماذا؟»

«قُلْتُ إنّ كْلاغَرْت يُضْمِرُ لكَ السّوءَ.»

رَدَّ بِلي في عَجَبٍ قائلًا: «وما دَخْلُ كْلاغَرْت بِبَحّارِ مُؤَخَّرَةٍ مَجْنونٍ؟»

صَرَّ العَجوزُ بأَسْنانِهِ وقالَ: «لقد كانَ إذًا بَحّارَ مُؤَخَّرَةٍ!» ثمّ أَشْعَلَ غَلْيونَهُ بِهُدوءٍ ، ومالَ بِظَهْرِهِ إلى الوَراءِ ولم يُضِفْ شَيْئًا.

على الرُّغْمِ من إصْرارِ دانسْكِرِ أنّ لِضابطِ السِّلاحِ يَدًا فيما وَقَعَ لِبِلي ، فإنّ بِلي نَفْسَهُ رَفَضَ أنْ يُصَدِّقَ ذلِكَ. وكانَ الشّابُّ مُسْتَعِدًّا أنْ يَضَعَ اللَّوْمَ على أيِّ

كانَ ، إلّا على الرَّجُلِ الّذي كانَ يَرى أنّه يُعامِلُهُ بِرِفْقٍ ويُكَلِّمُهُ بِلُطفٍ .

لم يَكُنْ من طَبْعِ بِلي أنْ يَتَوَقَّعَ الشَّرَّ حَيْثُ يَبْدو الخَيْرُ ظاهِرًا . لقد كانَ مُحاطًا دائِمًا بِبَحّارَةٍ يَفْتَقِدونَ البَراعَةَ في الحَديثِ ، ولا يَعْرِفونَ إلّا الكَلامَ المُباشَرَ الصَّريحَ .

لم يَعُدْ بِلي ، بَعْدَ حادِثَةِ انْدِلاقِ صَحْنِ الحَساءِ ، يَتَوَرَّطُ مَعَ عُرَفاءِ السَّفينَةِ . أمّا كْلاغَرْت فصارَ يُقابِلُ الشّابَّ دائِمًا بِابْتِسامَةٍ أَعْرَضَ من ذي قَبْلُ .





وكانَ وَجْهُ كْلاغَرْت ، على أَيِّ حالٍ ، يَنْطِقُ بإشاراتٍ لم يُلاحِظْ بِلي منها شَيْئًا. فقد كانَتْ عَيْنا ضابِطِ السِّلاحِ تَغْرَوْرِقانِ بِالدُّموعِ كُلَّما وَقَعَتا على بِلي يُحادِثُ رِفاقَهُ بِانْشِراحٍ. ولقد يَظُنُّ البُسَطاءُ أَنَّ تِلْكَ دُموعُ العَطْفِ والمَحَبَّةِ ، غَيْرَ أَنَّها كانَتْ في الواقِعِ دُموعَ الكُرْهِ والقَهْرِ. فَسُرْعانَ ما كانَ وَجْهُ الرَّجُلِ

يَتحوَّلُ مِنَ الكآبَةِ الغَريبَةِ إلى الحِقْدِ العَميقِ. وكُلَّما كانَ الرَّجُلانِ يَلْتَقِيانِ فَجْأَةً كانَتْ عَبْسَةُ تَهْديدٍ سَريعَةٌ تَقْفِزُ إلى وَجْهِ ضابِطِ السِّلاحِ.

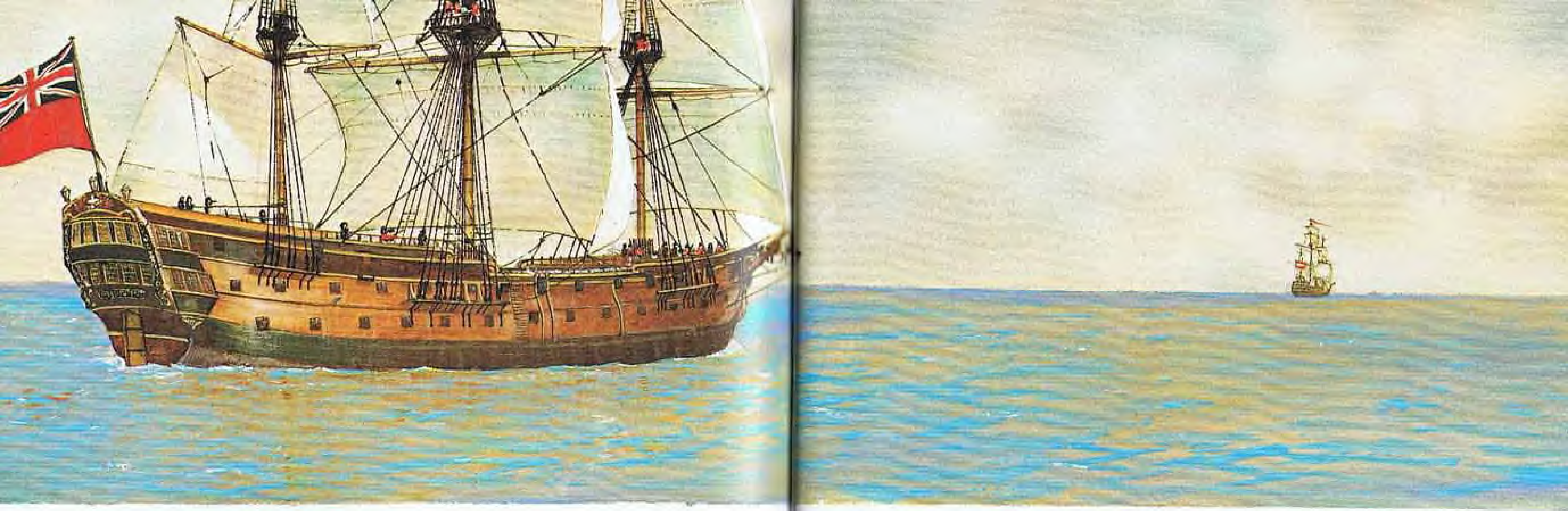
وعلى الرُّغْمِ من أنّ بِلي كانَ يَلْمَحُ أحْيانًا هذِهِ النَّظَراتِ الغَريبَةَ، فما كانَ أبْعَدَهُ عن فَهْمِ مَعْناها! وكان يَرُدُّها إلى غَرابَةِ أطْوارِ ضابِطِ السِّلاحِ أحْيانًا؛ فالتَّحِيّاتُ اللَّطيفَةُ الّتي كانَ يُبادِرُهُ بِها بَيْنَ الحينِ والحينِ كانَتْ كافِيَةً لِطَرْدِ الشُّكوكِ. ويَبْدو أنّ بِلي لم يَسْمَعْ أبَدًا بِعِبارَةِ «الكَلامِ المَعْسولِ»، وأعْمَتْهُ بَراءَتُهُ، وجَهْلُهُ بِالأعْمالِ الشِّرّيرَةِ.

ولقد كانَ أيْضًا مُغْمَضَ العَيْنَيْنِ في مَسْأَلَةٍ أُخرى. فإنّ اثْنَيْنِ مِنَ الضُّبّاطِ الصِّغارِ كانا قد بَدَآ يَرْمِيانِهِ بِنَظَراتِ شَكٍّ، كَتِلْكَ الّتي يُرْمى بها المَشْبوهونَ، على الرُّغْمِ أنّه لم يَكُنْ قد كَلَّمَهُما قَطُّ. ولم يَخْطُرْ بِبالِ بِلي أنْ يُلْقِيَ بالًا لِتِلْكَ النَّظَراتِ أو يُبْدِيَ أيَّ شَكٍّ حَوْلَها، على الرُّغْمِ أنّه كانَ يَعْرِفُ أنّ الضّابِطَيْنِ الصَّغيرَيْنِ يُجالِسانِ ضابِطَ السِّلاحِ في أثْناءِ الطَّعامِ، وأنّهما لِذلِكَ مُطَّلِعانِ على سَرائِرِ كْلاغَرْت ودَخيلَةِ نَفْسِهِ.

لقدِ اكْتَسَبَ البَحّارُ الوَسيمُ، بِسَبَبٍ من طَبيعَتِهِ الخَيِّرَةِ الصّالِحَةِ، شَعْبِيَّةً واسِعَةً جَعَلَتْهُ يَطْمَئِنُّ إلى إحْساسٍ كاذِبٍ بِالأمانِ. وساعَدَتْ نِيّاتُ رِفاقِهِ الحَسَنَةُ على ألّا يَلْتَفِتَ إلى النَّظَراتِ الصّامِتَةِ الّتي كانَتْ تُوَجَّهُ إلَيْهِ – وهي نَظَراتٌ لم يَكُنْ، على كُلِّ حالٍ، قادِرًا على فَهْمِها أو تَفْسيرِ مَعْناها.

وكانَ كْلاغَرْت قادِرًا على إخْفاءِ سَريرَةِ نَفْسِهِ تَحْتَ سِتارٍ مِنَ الحَرَكاتِ المُصْطَنَعَةِ. أمّا مِنْ داخِلُ، فقد كانَ حِقْدُهُ المَجْنونُ يَأْكُلُ قَلْبَهُ، وكأنّه نارٌ من الجَحيمِ، إلى أنْ وَصَلَ الأمْرُ إلى نِهايَتِهِ المُريعَةِ المَحْتومَةِ.

* * *



كانَ الأُسْطولُ البَريطانِيُّ في البَحْرِ المُتَوسِّطِ يُعاني من نَقْصٍ في سُفُنِ الاسْتِكْشافِ السَّريعَةِ ، فكانَتْ سَفينَةُ البلِيبوتَنْت تُسْتَخْدَمُ أَحْيانًا في دَوْرِيّاتِ الاسْتِكْشافِ ، أو تُرْسَلُ في مُهِمّاتٍ سِرِّيَّةٍ . ولم يَكُنِ اخْتِيارُ السَّفينَةِ لِمِثْلِ هٰذِهِ المُهِمّاتِ بِسَبَبٍ من سُرْعَتِها وقُدْرَتِها على المُناوَرَةِ فحَسْبُ ، بل أَيْضًا بِسَبَبٍ من شَخْصِيَّةِ قُبْطانِها ومَقْدِرَتِهِ على مُواجَهَةِ الأَخْطارِ المُفاجِئَةِ . وحَدَثَ في تِلْكَ الحَمْلَةِ عَيْنِها أَنْ تَمَكَّنَتِ السَّفينَةُ مِنِ اكْتِشافِ طَرّادٍ للعَدُوِّ فانْطَلَقَتْ وَراءَهُ ، لٰكِنَّ الطَّرّادَ كانَ مِنَ السُّرْعَةِ بِحَيْثُ تَمَكَّنَ مِنَ الإفْلاتِ .

وقَبْلَ أَنْ تَهْدَأَ النُّفوسُ ، على أَثَرِ تِلْكَ المُطارَدَةِ ، جاءَ ضابِطُ السِّلاحِ يَطْلُبُ مُقابَلَةَ القُبْطانِ ڤير على غَيْرِ انْتِظارٍ . نَظَرَ القُبْطانُ إلى الرَّجُلِ الماثِلِ أَمامَهُ بِنَفادِ صَبْرٍ ، وقالَ له : «نَعَمْ ، أَيُّها الضّابِطُ ، ما الحِكايَةُ ؟»

اِرْتَسَمَ على وَجْهِ كْلاغَرْت سيماءُ مَنْ يَحْمِلُ نَبَأً مُحْزِنًا خَطيرًا ، وقالَ إنّه في أَثْناءِ مُطارَدَةِ سَفينَةِ العَدُوِّ والاسْتِعْدادِ لِمَعْرَكَةٍ مُحْتَمَلَةٍ ، رأى ما أَقْنَعَهُ أَنّ أَحَدَ البَحّارَةِ كانَ يُشَكِّلُ خَطَرًا على سَلامَةِ السَّفينَةِ . يُضافُ إلى ذٰلِكَ أَنّ البَحّارَ عَيْنَهُ كانَ قد دَخَلَ في أُسْطولِ جَلالَةِ المَلِكِ مُكْرَهًا . تَدَخَّلَ القُبْطانُ ڤير مُقاطِعًا ، وقالَ بِحِدَّةٍ : «أُدْخُلْ في المَوْضوعِ ، يا رَجُلُ ، وسَمِّ الأَشْياءَ بِأَسْمائِها .»

اِنْحَنى كْلاغَرْت انْحِناءَةً بَسيطَةً ثُمّ تابَعَ اتِّهاماتِهِ ، فذَكَرَ أَنّه كانَ قد بَدَأَ يَشُكُّ مُؤَخَّرًا أَنّ البَحّارَ إيّاهُ يَقومُ بِتَنْظيمِ حَرَكَةٍ سِرِّيَّةٍ . وقد أَخَذَتْ شُكوكُهُ تَتَعاظَمُ إلى أَنْ تَأَكَّدَتْ لَدَيْهِ في أَثْناءِ مُطارَدَةِ سَفينَةِ العَدُوِّ . وقد رأى من واجِبِهِ أَنْ يَرْفَعَ الأَمْرَ إلى رُؤَسائِهِ ، وبِخاصَّةٍ بَعْدَ الأَحْداثِ المُؤْسِفَةِ الّتي واجَهَها الأُسْطولُ البَريطانِيُّ والقَلَقِ الّذي خَلَّفَتْهُ في نُفوسِ الضُّبّاطِ الكِبارِ .

لم يَكُنِ القُبْطانُ ڤير قادِرًا ، مُنْذُ أَوَّلِ المُقابَلَةِ ، على إخفاءِ عَدَمِ ارْتياحِهِ. لٰكِنَّ ذٰلِكَ الشُّعورَ أَخَذَ ، مَعَ اسْتِمْرارِ الاِتِّهاماتِ ، يَتَحَوَّلُ إلى ضيقٍ. أَخيرًا خَتَمَ كْلاغَرْت كَلامَهُ قائِلًا : «إنّي أَخْشى ، أَيُّها القُبْطانُ ، أَنْ تُلاقِيَ البَليپوتَنْت المَصيرَ نَفْسَهُ الّذي لاقَتْهُ ...»

قاطَعَهُ القُبْطانُ قائِلًا بِغَضَبٍ : «ما لَكَ ولِهٰذا !» فقد عَرَفَ أنّه كانَ يُريدُ أَنْ يُشيرَ إلى ما حَدَثَ من تَمَرُّدٍ في بَعْضِ سُفُنِ الأُسْطولِ. ولم تكُنْ إشارَةُ كْلاغَرْت لائِقَةً ، فلَيْسَ له ، كَضابِطٍ صَغيرٍ ، أَنْ يُذَكِّرَ القُبْطانَ بِمِثْلِ هٰذا الحَدَثِ.

سَكَتَ القُبْطانُ ، بَعْدَ غَضْبَتِهِ تِلْكَ ، لَحْظَةً ، ثمّ تابَعَ كَلامَهُ قائِلًا : «تَقولُ إنّ في السَّفينَةِ رَجُلًا خَطِرًا واحِدًا على الأَقَلِّ. سَمِّهِ.»

«بِلي بَض ، أَيُّها القُبْطانُ.»

بَدا الاِنْدِهاشُ الشَّديدُ على وَجْهِ القُبْطانِ ، وقالَ : «بِلي بَض ! أَتَعْني الرَّجُلَ الّذي أَخَذَهُ الضّابِطُ راتكْلِف منَ الأُسْطولِ التِّجارِيِّ مُنْذُ وَقْتٍ غَيْرِ بَعيدٍ ؛ الشّابَّ المَحْبوبَ – بِلي الوَسيمَ ، كما يُسَمّيهِ رِفاقُهُ البَحّارَةُ ؟»

أَجابَ ضابِطُ السِّلاحِ : «هو بِعَيْنِهِ ، يا سَيِّدي. إنّه ، على الرَّغْمِ من حَداثَةِ سِنِّهِ ووَسامَتِهِ ، شَخْصٌ خَطِرٌ. إنّ ظُهورَهُ أَمامَ رِفاقِهِ البَحّارَةِ بِمَظْهَرِ الشّابِّ الصّالِحِ لَيْسَ بَريئًا مِنَ الغاياتِ. إنّه يَعْرِفُ أَنَّ لِمِثْلِ هٰذِهِ الصّورَةِ نَفْعَها في حالِ انْكِشافِ أَمْرِهِ. أَلَمْ يُخْبِرْكَ الضّابِطُ راتكْلِف عنِ الكَلِمَةِ الّتي قالَها بَض عِنْدَما تَرَكَ سَفينَتَهُ التِّجارِيَّةَ ؟ لقد قالَ : الوَداعَ ، يا حُقوقَ الإنْسانِ. ولَيْسَ لي أَنْ أُذَكِّرَكَ بِما في هٰذِهِ المُلاحَظَةِ من طَعْنٍ بِالأُسْطولِ البَريطانِيِّ. لقد قالَ

كَلِمَتَهُ تِلْكَ بِلَهْجَةٍ مازِحَةٍ إخْفاءً لِمَقْصَدِهِ الخَسيسِ. لا رَيْبَ أنّكَ لاحَظْتَ هٰذِهِ المَقْدِرَةَ عِنْدَهُ.»

كانَ القُبْطانُ قد وَجَدَ في بِلي ، مُنْذُ أنْ وَقَعَتْ عليه عَيْناهُ ، إنْسانًا يَلْفِتُ الإنْتِباهَ. وعلى الرُّغْمِ من أنّه لم يَكُنْ رَجُلًا يُفْصِحُ عمّا في نَفْسِهِ ، فقد هَنَّأَ الضّابِطَ راتكْلِف على حُسْنِ طالِعِهِ الّذي أَوْقَعَهُ على مِثْلِ ذٰلِكَ الرَّجُلِ. وكانَ قد سَمِعَ عنِ الكَلِمَةِ الّتي وَدَّعَ فيها بِلي سَفينَتَهُ «حقوقُ الإنْسانِ» ، ولم يَرَ فيها مَقْصَدًا خَسيسًا.



لم يُعلِّقِ القُبْطانُ فير على الطَّريقَةِ الّتي شَوَّهَ بِها كْلاغَرْت كَلِمَةَ البَحّارِ البَريئَةَ ، لٰكِنّه تذكَّرَ أنّه ، حينَ سَمِعَ تِلْكَ الحِكايَةَ ، ازْدادَ إعْجابًا بِالبَحّارِ لِروحِهِ المَرِحَةِ الّتي واجَهَ بِها تَجْنيدَهُ الإجْبارِيَّ. وكانَ يَعْتَبِرُ الأَمْرَ ، بِمُجْمَلِهِ ، صَفْقَةً رابِحَةً ، واسْتِثْمارًا يَدُرُّ على أُسْطولِ جَلالَتِهِ مَرْدودًا مُجْزِيًا.

صَمَتَ القُبْطانُ بُرْهَةً ، كانَتْ هٰذِهِ الأَفْكارُ خِلالَها تَمُرُّ في مُخَيِّلَتِهِ. لقد بَدَأَ يَشْعُرُ أنَّ اتِّهاماتِ ضابِطِ السِّلاحِ كاذِبَةٌ.

أَخيرًا الْتَفَتَ إِلَيْهِ وخاطَبَهُ بِصَوْتٍ خَفيضٍ مُتَوَعِّدٍ قائِلًا : «أَتَسْمَحُ لِنَفْسِكَ بأن تَأْتِيَني بِمِثْلِ هٰذِهِ الحِكايَةِ الغامِضَةِ؟ أمّا بالنِّسْبَةِ لِبَض فاذْكُرْ فِعْلًا واحِدًا من أَفْعالِهِ يُؤَكِّدُ ما تُلْقيهِ مِنِ اتِّهاماتٍ ، أوِ اذْكُرْ كَلِمَةً واحِدَةً من كَلِماتِهِ تُؤَكِّدُ ذٰلِكَ. وتَذَكَّرْ أنَّ لِشَهادَةِ الزّورِ عِقابًا صارِمًا.»

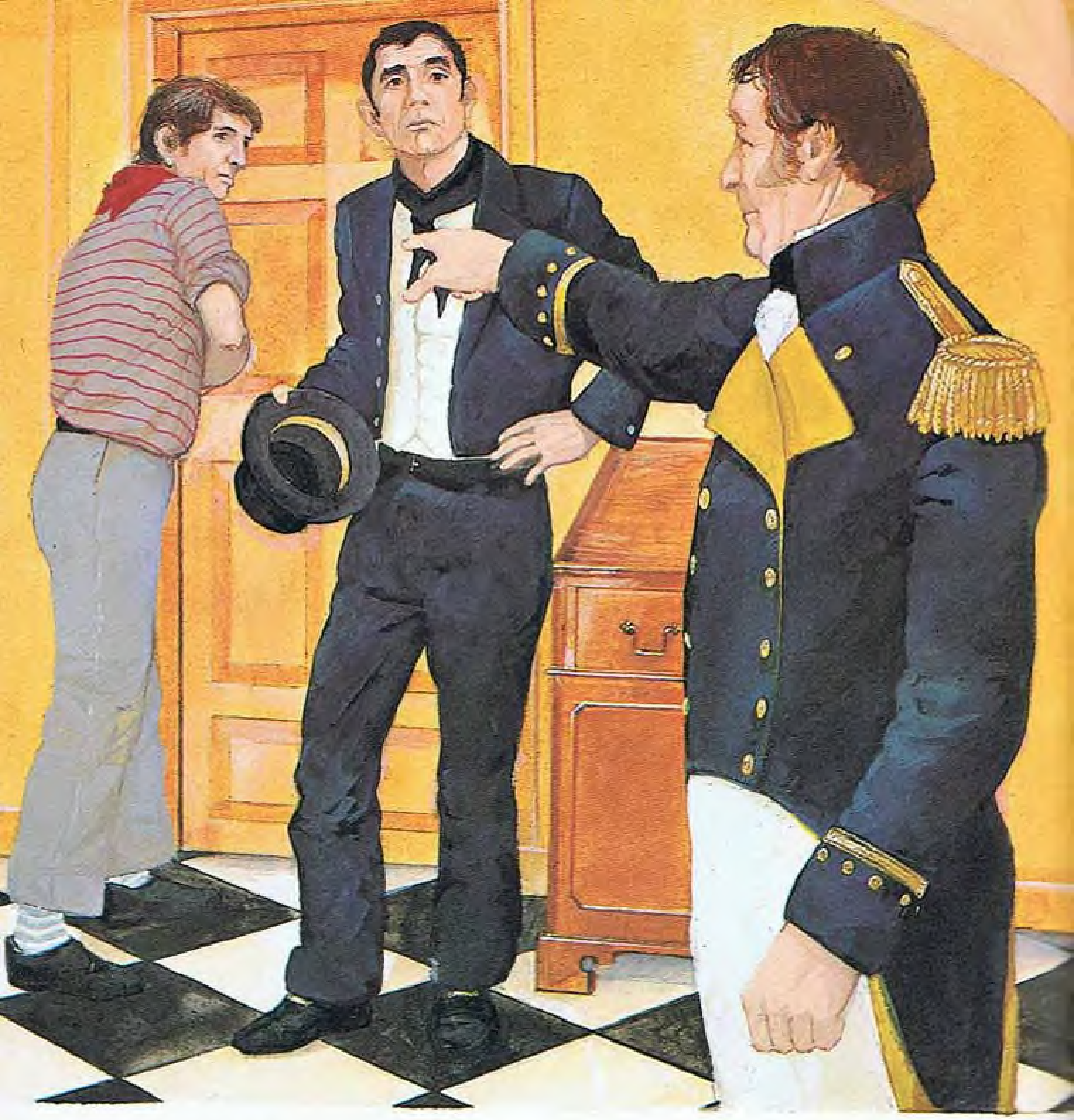
تَرَكَتْ لَهْجَةُ القُبْطانِ القاسِيَةُ أَثَرَها في ضابِطِ السِّلاحِ ، فَصَدَرَتْ عنه تَنَهُّدَةٌ ، وبَدا الخَوْفُ على وَجْهِهِ. لٰكِنّه تَمَكَّنَ بَعْدَ لَحْظَةٍ من تَمالُكِ نَفْسِهِ ، وراحَ يَتَحَدَّثُ عن أَحْداثٍ وأَقْوالٍ تُشيرُ ، لو صَحَّتْ ، إلى ذَنْبِ بِلي.

أَنْصَتَ القُبْطانُ إلى ضابِطِ السِّلاحِ. وكانَتْ عَيْناهُ الرَّمادِيَّتانِ تُحَدِّقانِ طَوالَ الوَقْتِ في عَيْنَيِ الضّابِطِ. وعِنْدَما انْتَهى ذاكَ من اتِّهاماتِهِ ، سَأَلَ القُبْطانُ قائِلًا : «هَلِ الآنَ نَوْبَةُ بَض في العَمَلِ؟»

أَجابَ كْلاغَرْت : «لا ، يا سَيِّدي.»

اِسْتَدْعى القُبْطانُ ، عِنْدَئِذٍ ، خادِمَهُ الخاصَّ وقالَ له : «أَتَعْرِفُ بَض ، كَشّافَ الصّارِيَةِ؟»

أَجابَ الخادِمُ : «أَعْرِفُهُ ، يا سَيِّدي.»



«اِذْهَبْ وابْحَثْ عنه. لنْ تَجِدَهُ الآنَ في مَكانِ عَمَلِهِ. قُلْ له، دونَ أنْ يَسْمَعَ أَحَدٌ آخَرُ كَلامَكَ، إنّه مَطْلوبٌ هُنا. واحْرِصْ على ألّا يُخاطِبَ شَخْصًا آخَرَ سِواكَ. فَهِمْتَ؟» ثمّ الْتَفَتَ إلى كْلاغَرْت، وقالَ له آمِرًا: «يا ضابِطَ السِّلاحِ، اذْهَبْ إلى مَكانِ عَمَلِكَ، وكأنَّ شَيْئًا لم يَكُنْ. وعِنْدَما تَرى بَض قادِمًا إلى هُنا اتْبَعْهُ بِهُدوءٍ.»

أَحَسَّ بِلي في غُرْفَةِ القُبْطانِ بِالارْتِباكِ. لٰكِنَّ ذٰلِكَ الارْتِباكَ لم يَكُنْ مُقْتَرِنًا بِأَيِّ تَوَقُّعٍ لِمَا يَنْوي به كْلاغَرْت من شَرٍّ. وظَنَّ أَنَّ القُبْطانَ يُحِبُّهُ ويُقَدِّرُهُ، ولَعَلَّهُ اسْتَدْعاهُ لِيَزِفَّ إِلَيْهِ بُشْرى تَرْقِيَةٍ، وظَنَّ أَيْضًا أَنّه اسْتَدْعى ضابِطَ السِّلاحِ لِيَقِفَ على رَأْيِهِ في أَمْرِ تِلْكَ التَّرْقِيَةِ.

قالَ القُبْطانُ لِخادِمِهِ آمِرًا: «قِفْ بِالبابِ. ولا تَسْمَحْ لِأَحَدٍ بِالدُّخولِ. والآنَ، يا ضابِطَ السِّلاحِ، قُلْ لِهٰذا الرَّجُلِ، مُواجَهَةً، ما كُنْتَ أَخْبَرْتَني بِهِ.»

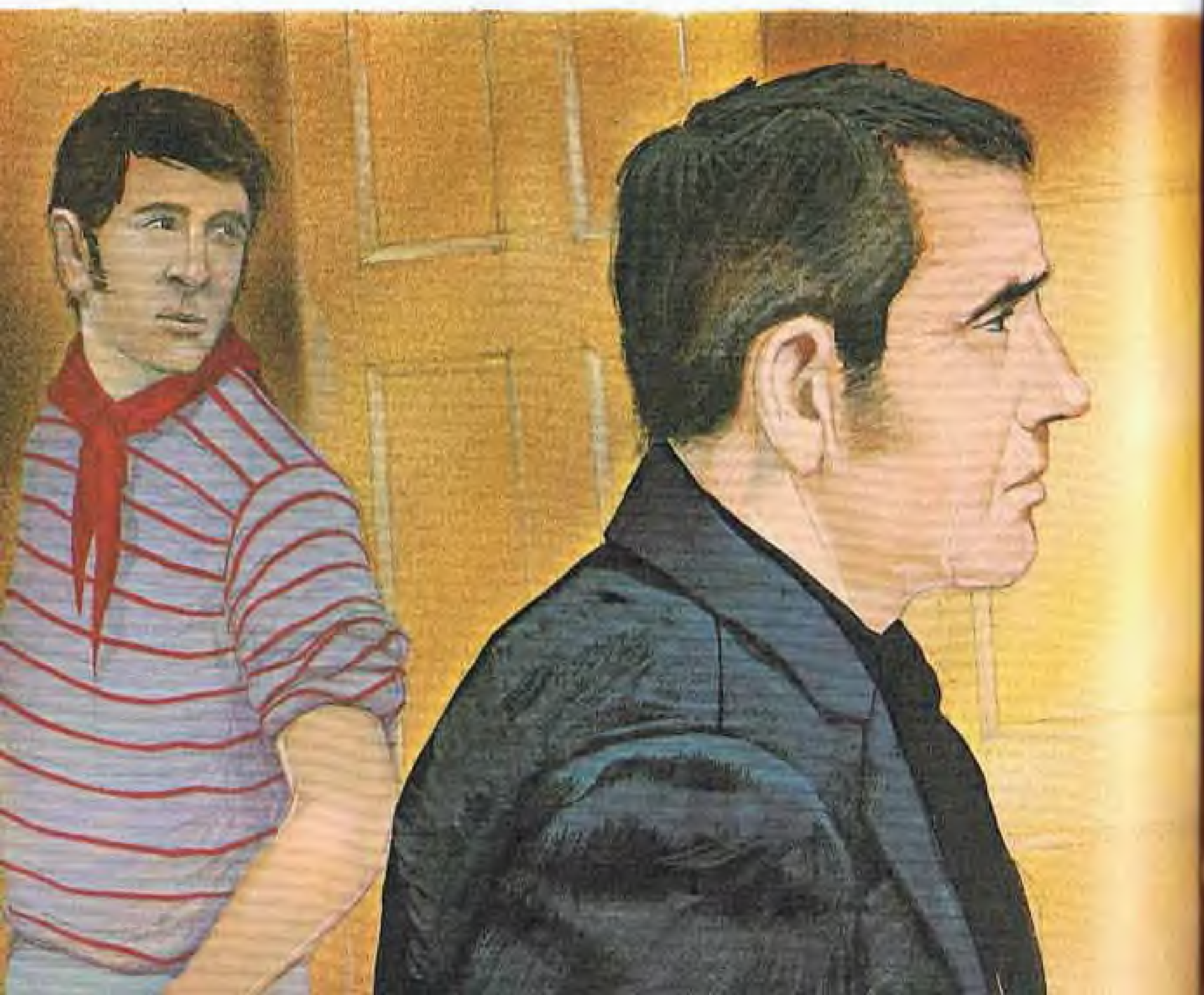
تَقَدَّمَ كْلاغَرْت من بِلي، ونَظَرَ في عَيْنَيْهِ، وكَرَّرَ اتِّهاماتِهِ بِتَأَنٍّ ووُضوحٍ. لم يُدْرِكْ بِلي، أَوَّلَ الأَمْرِ، أَنّ ضابِطَ السِّلاحِ يَتَحَدَّثُ عنه. ثم بَدَأَ يُدْرِكُ



أَنّه المَقْصودُ، فشَحَبَ وَجْهُهُ شُحوبًا شَديدًا، وتَسَمَّرَ في مَكانِهِ لا يَعي كَلِمَةً ولا تَصْدُرُ عنه نَأْمَةٌ.

أَنْهى كْلاغَرْت اتِّهاماتِهِ، فالْتَفَتَ القُبْطانُ إلى بِلي، وقالَ له آمِرًا: «تَكَلَّمْ، يا رَجُلُ.» وكانَ القُبْطانُ، طَوالَ الوَقْتِ، يُراقِبُ الرَّجُلَيْنِ مُراقَبَةً دَقيقَةً، وقد أَدْهَشَهُ ما تَرَكَ كَلامُ كْلاغَرْت من أَثَرٍ في البَحّارِ الوَسيمِ. وقالَ مُكَرِّرًا: «تَكَلَّمْ! دافِعْ عن نَفْسِكَ!»

غَيْرَ أَنَّ طَلَبَ القُبْطانِ لم يُقابَلْ إلّا بإشاراتٍ بَلْهاءَ وأَصْواتِ فَأْفَأَةٍ وبَقْبَقَةٍ وقَرْقَرَةٍ. لقد كانَ بِلي مِنَ الذُّهولِ بِحَيْثُ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ عِلَّةٌ لِسانِهِ ومَنَعَتْهُ من أَنْ يَنْطِقَ كَلِمَةً واحِدَةً.





وعلى الرُّغْمِ من أنَّ القُبْطانَ لم يَكُنْ على عِلْمٍ بِعِلَّةِ بِلي اللِّسانِيَّةِ فإنَّه تَمكَّنَ في الحالِ من تَشْخيصِ سَبَبِ المُشْكِلَةِ. مَشى إلى البَحّارِ، ووَضَعَ يَدًا رَفيقَةً على كَتِفِهِ، وقالَ له بِلَهْجَةٍ أَبَوِيَّةٍ: «لَيْسَ في الأَمْرِ عَجَلَةٌ، يا بُنَيَّ. على مَهْلِكَ، على مَهْلِكَ!»

على أنّه كانَ لِتِلْكَ الكَلِماتِ تأْثيرٌ عَكْسِيٌّ. وراحَ البَحّارُ المِسْكينُ يَزْدادُ شحوبًا واضطِرابًا كلّما ازْدادَ جِهادُهُ في سَبيلِ قَوْلِ شَيْءٍ.

ثمّ حَدَثَ فَجْأَةً شيْءٌ مُذْهِلٌ. فقدِ ارْتَفَعَتْ ذِراعُ بِلي اليُمْنى وخَبَطَتْ جَبينَ كْلاغَرْت خَبْطَةً رَهيبَةً. سَقَطَ ضابِطُ السِّلاحِ أَرْضًا، وكأنّما ضُرِبَ بِقَضيبٍ من حَديدٍ. شَهَقَ شَهْقَةً واحِدَةً، وانْتَفَضَ جَسَدُهُ مَرَّةً، ثمّ اسْتَقَرَّ ساكِنًا.

شَهَقَ القُبْطانُ قائِلًا: «أَيُّها الوَلَدُ المَنْكودُ، ماذا فَعَلْتَ؟ تَعالَ، ساعِدْني!»

أَسْنَدَ الرَّجُلانِ الجَسَدَ السّاكِنَ، فلم تَصْدُرْ عنه نَأْمَةٌ. وَقَفَ القُبْطانُ ونَظَرَ إلى بِلي بإشْفاقٍ، ثمّ تَذَكَّرَ مَرْكَزَهُ، وواجِبَهُ كَقُبْطانٍ، فارْتَسَمَتْ على وَجْهِهِ مَلامِحُ قاسِيَةٌ.

تكَلَّمَ القُبْطانُ بِصَوْتٍ حازِمٍ، آمِرًا كَشّافَ الصّارِيَةِ أنْ يَدْخُلَ غُرْفَةً صَغيرَةً مُجاوِرَةً، وأنْ يَبْقى فيها إلى أنْ يَتَلَقّى أوامِرَ أُخْرى.

أَطاعَ بِلي الأَمْرَ على نَحْوٍ آلِيٍّ، وعَيْناهُ مُسَمَّرَتانِ في الجَسَدِ السّاكِنِ. ثمّ تَوَجَّهَ القُبْطانُ إلى البابِ وأَمَرَ خادِمَهُ أنْ يَأْتِيَهُ بالطَّبيبِ.

وَصَلَ الطَّبيبُ ، فألْقى نَظْرَةً واحِدَةً على الجَسَدِ المُمَدَّدِ على الأَرْضِ ، ثمّ أَسْرَعَ يَجْثو إلى جانِبِهِ لِيَفْحَصَهُ .

سَأَلَ القُبْطانُ ، وهو يُراقِبُ الطَّبيبَ : «ماتَ؟» ولم يَكُنِ الطَّبيبُ مُحْتاجًا إلّا لِبُرْهَةٍ قَصيرةٍ ، فقد رَفَعَ بَصَرَهُ إلى القُبْطان ، وهَزَّ رَأْسَهُ ، لكِنّه لم يَقُلْ شَيْئًا .

فَجْأَةً هَتَفَ القُبْطانُ : «ضَرْبَةٌ قاتِلَةٌ من مَلاكٍ ! على أنّه يَنْبَغي شَنْقُ ذلِكَ المَلاكِ !» ولم يَكُنِ الطَّبيبُ قد رَأى القُبْطانَ على مِثْلِ تِلْكَ الحالِ منَ الانْفِعالِ . فسَبَّبَ له ذلِكَ قَلَقًا عَميقًا ، لكِنّه ظَلَّ على صَمْتِهِ .

ثمّ تَمالَكَ القُبْطانُ نَفْسَهُ ، فقالَ بِلَهْجَةٍ تَميلُ إلى الهُدوءِ : «خُذِ الجُثْمانَ من هنا . عَلَيَّ أنْ أَعْقِدَ مَحْكَمَةً مَيْدانِيَّةً . أَخْبِرِ الضّابِطَيْنِ ، الأَوَّلَ والثّانِيَ ، وقائِدَ مُشاةِ البَحْرِيَّةِ بما جرى . لا تُخْبِرْ أَحَدًا غَيْرَ هؤُلاءِ ، وشَدِّدْ أَمامَهُمْ على أَهَمِّيَّةِ السِّرِّيَّةِ المُطْلَقَةِ .»

غادَرَ الطَّبيبُ الغُرْفَةَ وقد لَعِبَتْ بِرَأْسِهِ الهَواجِسُ والظُّنونُ . وبَدا له كأنَّ القُبْطانَ أُصيبَ بِجُنونٍ مُفاجِئٍ . لقد أَقْلَقَهُ كَثيرًا أَمْرُ تِلْكَ المَحْكَمَةِ المَيْدانِيَّةِ . فالمَحْكَمَةُ المَيْدانِيَّةُ لا تُعْقَدُ إلّا إذا كانَتِ السَّفينَةُ في عُرْضِ البَحْرِ ، وفي زَمَنِ الحَرْبِ فَقَطْ . وهي تُعْطي قُبْطانَ السَّفينَةِ سُلْطَةً كامِلَةً في إصْدارِ الحُكْمِ على المُتَّهَمِ وتَنْفيذِهِ .

وكانَ من رَأْيِ الطَّبيبِ أنّ مِنَ الحِكْمَةِ الانْتِظارَ إلى أنْ تَلْتَحِقَ السَّفينَةُ بِسائِرِ سُفُنِ الأُسْطولِ ، ثمّ تُرْفَعُ القَضِيَّةُ بِرُمَّتِها عِنْدَئِذٍ إلى الأَميرالِ . على أنْ يَظَلَّ بِلي في هذِهِ الأَثْناءِ قَيْدَ الاحْتِجازِ ، وتَحْتَ حِراسَةٍ مُشَدَّدَةٍ . لكِنَّ

الطَّبيبَ لم يُصَرِّحْ بِما راوَدَهُ من أَفْكارٍ لِأَحَدٍ ، وقامَ في الحالِ بِتَنْفيذِ الأَوامِرِ .

أَحَسَّ الضّابطانِ وقائِدُ مُشاةِ البَحْرِيَّةِ بِما كانَ أَحَسَّ بِهِ الطَّبيبُ . وكانَ من رَأْيِهِمْ هم أَيْضًا أنّ عَقْدَ المَحْكَمَةِ المَيْدانِيَّةِ قرارٌ مُتَسَرِّعٌ وغَيْرُ حَكيمٍ .

على أنّه كانَ عِنْدَ القُبْطانِ قير أَسْبابٌ واضِحَةٌ أَمْلَتْ عَلَيْهِ ذٰلِكَ القَرارَ . فإنّه كانَ يَخْشى ، في ضَوْءِ حَوادِثِ التَّمَرُّدِ الأَخيرَةِ ، ونَظَرًا لِشَعْبِيَّةِ بِلي الواسِعَةِ ، أنْ يَقومَ البَحّارَةُ بِرَدِّ فِعْلٍ عَنيفٍ . فلنْ يَطولَ الأَمْرُ قَبْلَ أنْ يُلاحَظَ غِيابُ بِلي ، وتَبْدَأَ التَّساؤُلاتُ والأَقاويلُ . وإنْ كانَ صَديقُهُمْ سَيَظَلُّ قَيْدَ الاِحْتِجازِ إلى أنْ تَلْتَحِقَ السَّفينَةُ بِسائِرِ سُفُنِ الأُسْطولِ ، فلا يَعْلَمُ أَحَدٌ كَيْفَ يَنْتَهي الحالُ . لِذا ، فإنّ القُبْطانَ لم يَشَأْ أنْ يَتْرُكَ القَضِيَّةَ تَطولُ ، وأَحَسَّ أنّ عَلَيْهِ أنْ يَتَّخِذَ إجْراءً سَريعًا ، يَقْطَعُ بِهِ الطَّريقَ على ما يُمْكِنُ أنْ يَنْشَأَ من تَساؤُلاتٍ أو يُعَدَّ من خُطَطٍ .





عُقِدَتِ المَحْكَمَةُ المَيْدانِيَّةُ على أَثَرِ ذلِكَ ، وتَأَلَّفَتْ من ثَلاثَةِ ضُبّاطٍ أُنيطَ بهم أَمْرُ إِصْدارِ الحُكْمِ النِّهائِيِّ. وكانَ القُبْطانُ ڤير الشّاهِدَ الوَحيدَ في تِلْكَ القَضِيَّةِ. عُقِدَتِ الجَلْسَةُ في الغُرْفَةِ نَفْسِها الّتي شَهِدَتِ المَأْساةَ. ووَقَفَ بِلي أَمامَ مِنْبَرِ القُضاةِ بَيْنَ حارِسَيْنِ.

رَوى القُبْطانُ ڤير بِاخْتِصارٍ الأَحْداثَ الّتي أَدَّتْ إلى مَصْرَعِ كْلاغَرْت ، دونَ أَنْ يَتْرُكَ شَيْئًا مِنِ اتِّهاماتِ كْلاغَرْت أو رَدِّ فِعْلِ بِلي عَلَيْها. وكانَ الضُّبّاطُ

الثَّلاثَةُ ، في أَثْناءِ الشَّهادَةِ ، يَرْمُقونَ بِلي في دَهْشَةٍ. فقد كانَ عِنْدَهُمْ آخِرَ مَنْ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الشَّكُّ في القِيامِ بِنشاطاتِ تَمَرُّدٍ. وعِنْدَما خَتَمَ القُبْطانُ فير شَهادَتَهُ ، وَقَفَ الضّابِطُ الأَوَّلُ ، والْتَفَتَ إلى المُتَّهَمِ ، وقالَ :

«سَمِعْتَ شَهادَةَ القُبْطانِ ، فَهَلْ وَقَعَ الأَمْرُ ، كَما رَوى القُبْطانُ؟»

أَجابَ بِلي : «القُبْطانُ رَوى الحَقيقَةَ ، كما هي. لٰكِنَّ ضابِطَ السِّلاحِ كَذَبَ. فأنا من أَتْباعِ المَلِكِ المُخْلِصينَ.»

قالَ القُبْطانُ من زاوِيَتِهِ ، وقد شابَ صَوْتَهُ رَجْفَةٌ خَفيفَةٌ : «أُصَدِّقُكَ ، يا صاحِبي.»

طَغا الانْفِعالُ على بِلي حتّى أَوْشَكَ أنْ يَنْفَجِرَ باكِيًا ، وقالَ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : «بارَكَكَ اللهُ ، يا سَيِّدي!» لٰكِنْ كانَ عَلَيْهِ أنْ يَتَمالَكَ نَفْسَهُ ، إذْ سُرْعانَ ما وُجِّهَ إِلَيْهِ سُؤالٌ جَديدٌ :

«هَلْ كانَ بَيْنَكَ وبَيْنَ ضابِطِ السِّلاحِ ضَغينَةٌ؟»

أَجابَ بِلي : «لا ، لم يَكُنْ بَيْنَنا شَيْءٌ من ذٰلِكَ. وأنا آسِفٌ لِمَوْتِهِ. لم أَقْصِدْ قَتْلَهُ. لو كُنْتُ قادِرًا على اسْتِعْمالِ لِساني لما ضَرَبْتُهُ. لٰكِنَّه كَذَبَ في وَجْهي وفي حُضورِ القُبْطانِ ، وكانَ عَلَيَّ أنْ أَقولَ شَيْئًا. ما كُنْتُ عاجِزًا عن قَوْلِهِ بِلساني قُلْتُهُ بِيَدي. لِيَكُنِ اللهُ في عَوْني!»

وَجَدَ الضُّبّاطُ في كَلامِ بِلي الصَّريحِ تَأْكيدًا لِصِدْقِهِ. ثمّ سُئِلَ إنْ كانَ قد سَمِعَ بِنَشاطاتِ تَمَرُّدٍ ، أو شَكَّ بِمِثْلِ هٰذِهِ النَّشاطاتِ ، في أَيٍّ من أَقْسامِ السَّفينَةِ.



صَمَتَ بلي بُرْهَةً ، فقد تَذَكَّرَ حادِثَةَ بَحّارِ المُؤَخَّرَةِ . ولو أنّه رَوى للمَحْكَمَةِ هٰذِهِ الحادِثَةَ لَكانَ أَثْبَتَ ، بما لا يَقْبَلُ الشَّكَّ ، إخْلاصَهُ وأَمانَتَهُ . لٰكِنّه أَحَسَّ آنَذاكَ ، مَرَّةً أُخْرى ، بما كانَ أَحَسَّ به مِنْ قَبْلُ مِنْ تَقَزُّزٍ مِنَ التَّبْليغِ عن أَحَدِ رِفاقِهِ البَحّارَةِ . فكانَ أَنْ أَجابَ بالنَّفْيِ .

ثمّ قالَ الضّابِطُ وقد شابَ لَهْجَتَهُ شَيْءٌ مِنَ القَلَقِ : «تَقولُ إنّ ما اتَّهَمَكَ به ضابِطُ السِّلاحِ كَذِبٌ ، فما الّذي يَحْمِلُهُ على مِثْلِ هٰذِهِ الكِذْبَةِ الفَظيعَةِ ، وقد صَرَّحْتَ أَنْتَ نَفْسُكَ أنْ لَيْسَ بَيْنَكُما ضَغينَةٌ ؟»

أَصابَ هٰذا السُّؤالُ صَميمَ المَسْأَلَةِ . لٰكِنْ مِنْ أَيْنَ لِبلي أَنْ يَعْرِفَ الجَوابَ ؟ فوَقَفَ حائِرًا ، غَيْرَ قادِرٍ على أنْ يَخْرُجَ بِسَبَبٍ واحِدٍ . أَخيرًا اسْتَسْلَمَ لِعَجْزِهِ ، ونَظَرَ إلى القُبْطانِ بِعَيْنَيْنِ حائِرَتَيْنِ عاجِزَتَيْنِ .

كانَ القُبْطانُ ڤير قد ظَلَّ في أَثْناءِ الاسْتِجوابِ جالِسًا ، لٰكِنّه الآنَ وَقَفَ وخاطَبَ الضُّبّاطَ من وراءِ المِنْبَرِ قائِلًا :



«السُّؤالُ الّذي وَجَّهْتُموهُ إلى المُتَّهَمِ طَبيعِيٌّ . لٰكِنّه لَيْسَ قادِرًا ، ولا غَيْرُهُ يَقْدِرُ ، على الإجابَةِ عَنْهُ ، إلّا إذا كانَ المَسْؤولَ جون كْلاغَرْت نَفْسُهُ . لِذا ، يَبْدو لي أنّ السُّؤالَ لا مَحَلَّ له . وعلى المَحْكَمَةِ أنْ تَحْصُرَ هَمَّها فَقَطْ في النَّتائِجِ الّتي تَرَتَّبَتْ على الخَبْطَةِ القاتِلَةِ ، ولَيْسَ على بَواعِثِ تِلْكَ الخَبْطَةِ .»

لم يَفْهَمْ بلي شَيْئًا من تِلْكَ الكَلِماتِ ، لٰكِنّ الضُّبّاطَ فَهِموا في الحالِ ما يَرْمي إلَيْهِ القُبْطانُ . تابَعَ القُبْطانُ يَقولُ : «نَحْنُ مَحْكَمَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ ، فعَمَلُ المُتَّهَمِ وَحْدَهُ ، ودونَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ ، هو مَوْضِعُ اهْتِمامِنا .»

جَلَسَ الضُّبّاطُ صامِتينَ لَحَظاتٍ ، ثمّ وَقَفَ الضّابِطُ الأَوَّلُ ثانِيَةً ، ووَجَّهَ كَلامَهُ إلى المُتَّهَمِ قائِلًا : «يا بلي بَض ، إنْ كانَ عِنْدَكَ شَيْءٌ آخَرُ تَقولُهُ دِفاعًا عن نَفْسِكَ ، فتَكَلَّمِ الآنَ .»

رَأى بلي أنّ مِنَ الحِكْمَةِ الآنَ أنْ يَلوذَ بالصَّمْتِ ، فقالَ : «قُلْتُ كُلَّ ما عِنْدي ، يا سَيِّدي .»

أُمِرَ الحارِسانِ أنْ يُعيدا المُتَّهَمَ إلى الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ رَيْثَما تَنْظُرُ المَحْكَمَةُ في الحُكْمِ. وما إنْ تَرَكَ بِلي القاعَةَ حتّى تَمَلْمَلَ الضُّبّاطُ الثَّلاثَةُ في مَقاعِدِهِمْ، ومَكَثوا صامِتينَ، في انْتِظارِ أنْ يَبْدَأَ القُبْطانُ الكَلامَ.

راحَ القُبْطانُ يَذْرَعُ الغُرْفَةَ جيئَةً وذَهابًا، وقدِ اسْتَغْرَقَ في تَفْكيرٍ عَميقٍ. أخيرًا تَوَقَّفَ، والْتَفَتَ إلى الضُّبّاطِ المُجْتَمِعينَ وخاطَبَهُمْ قائِلًا:

«اِقْتَصَرَ عَمَلي، حتّى الآنَ، بِشَكْلٍ أو آخَرَ، على رِوايَةِ ما شاهَدْتُ. على أنّي أَوَدُّ الآنَ أنْ أَلْفِتَ انْتِباهَكُمْ إلى بَعْضِ جَوانِبِ هٰذِهِ القَضِيَّةِ. رَأَيْتُ



من رُدودٍ فعِلكُمْ أنكم حائِرونَ بَيْنَ عَطْفِكُمْ على الرَّجلِ ، وهو أمْرٌ أُشارِكُكُمْ فيه ، وواجِبِكُمْ كَضُبّاطٍ في الأُسْطولِ الحَرْبيِّ. كَيْفَ نُرْسِلُ هٰذا الشّابَّ إلى مَوْتٍ مُلَطَّخٍ بِالعارِ ، في حينِ نُؤْمِنُ أنه بَريءٌ مِمّا نُسِبَ إلَيْهِ من تُهَمٍ؟ ومَعَ ذٰلِكَ فإنّنا جَميعًا نَعْرِفُ قَوانينَ البَحْرِيَّةِ. أَمامَ مَنْ نحْنُ مَسْؤولونَ – الطَّبيعةِ أمِ المَلِكِ؟ إنْ كُنّا مَسْؤولِينَ أَمامَ الطَّبيعَةِ فإنّكم تَعْلَمونَ ، مِثْلما أَعْلَمُ أنا ، أنَّ الحُكْمَ سيَكونُ عِنْدَئِذٍ سَهْلًا. فكْلاغَرْت اسْتَحَقَّ المَوْتَ جَزاءَ ما أَطْلَقَهُ من تُهَمٍ مُشينَةٍ. لقد دَفَعَ ثَمَنَ شَهادَةِ الزّورِ. على أَيِّ حالٍ ، نحن مُجْتَمِعونَ هُنا بِصِفَتِنا ضُبّاطًا في البَحْرِيَّةِ المَلَكِيَّةِ ، وإلَيْكُمُ الحَقائِقَ: لقد ضَرَبَ بَحّارٌ شَخْصًا أَعْلى منه رُتْبَةً. واسْتِنادًا إلى قَوانينِ الحَرْبِ ، فإنّه إذا ضَرَبَ رَجُلٌ شَخْصًا أَعْلى منه رُتْبَةً ضَرْبَةً أَدَّتْ إلى مَصْرَعِهِ ، فعِقابُ ذٰلِكَ المَوْتُ.»

جاءَ صَوْتُ الضّابِطِ الأَوَّلِ مُتَهَدِّجًا يقولُ: «نَعَمْ ، يا سَيِّدي. لَعَلَّ في ذٰلِكَ جَريمَةً ، لٰكِنْ مِنَ المُؤَكَّدِ أنَّ بَض لم يَكُنْ مُتَمَرِّدًا ولا قَصَدَ القَتْلَ.»

أَجابَ القُبْطانُ: «مِنَ المُؤَكَّدِ أنّه لم يَفْعَلْ أَيًّا مِنَ الأَمْرَيْنِ ، ولو أنّه مَثُلَ أَمامَ مَحْكَمَةٍ أُخرى غَيْرِ عَسْكَرِيَّةٍ لَوُجِدَ بَريئًا من تُهْمَةِ القَتْلِ. لٰكِنْ عَلَيْنا أنْ نُحاكِمَهُ وَفْقًا لِقوانينِ البَحْرِيَّةِ في ظِلِّ الحَرْبِ. نَعْلَمُ أنَّ الرِّجالَ يُساقونَ إلى الحَرْبِ أَحْيانًا مُكْرَهينَ. ونَحْنُ ، كَرِجالٍ مِثْلِهِمْ ، نَفْهَمُ مَشاعِرَهُمْ ، لٰكِنْ عَلَيْنا ، كَضُبّاطٍ في البَحْرِيَّةِ ، أنْ نَنْظُرَ إلَيْهِمْ نَظْرَتَنا إلى المُتَطَوِّعينَ. لا يُفَرِّقُ العَدُوُّ ، عِنْدَما يَضْرِبُنا بالسُّيوفِ ، بَيْنَ المُجَنَّدينَ تَجْنيدًا إجْبارِيًّا من رِجالِنا والمُتَطَوِّعينَ منهم. وعَلَيْنا أَلّا نَضَعَ نَحْنُ مِثْلَ تِلْكَ الفُروقِ. لا تَرى الحَرْبُ إلّا ما تَنْظُرُ إلَيْهِ ، أَيّها السّادَةُ. لِذا فإنّ ما كانَ يَنْويهِ بَض ، أو ما لم يَكُنْ يَنْويهِ ، لَيْسَ ذا شَأْنٍ بِقَضِيَّتِنا.

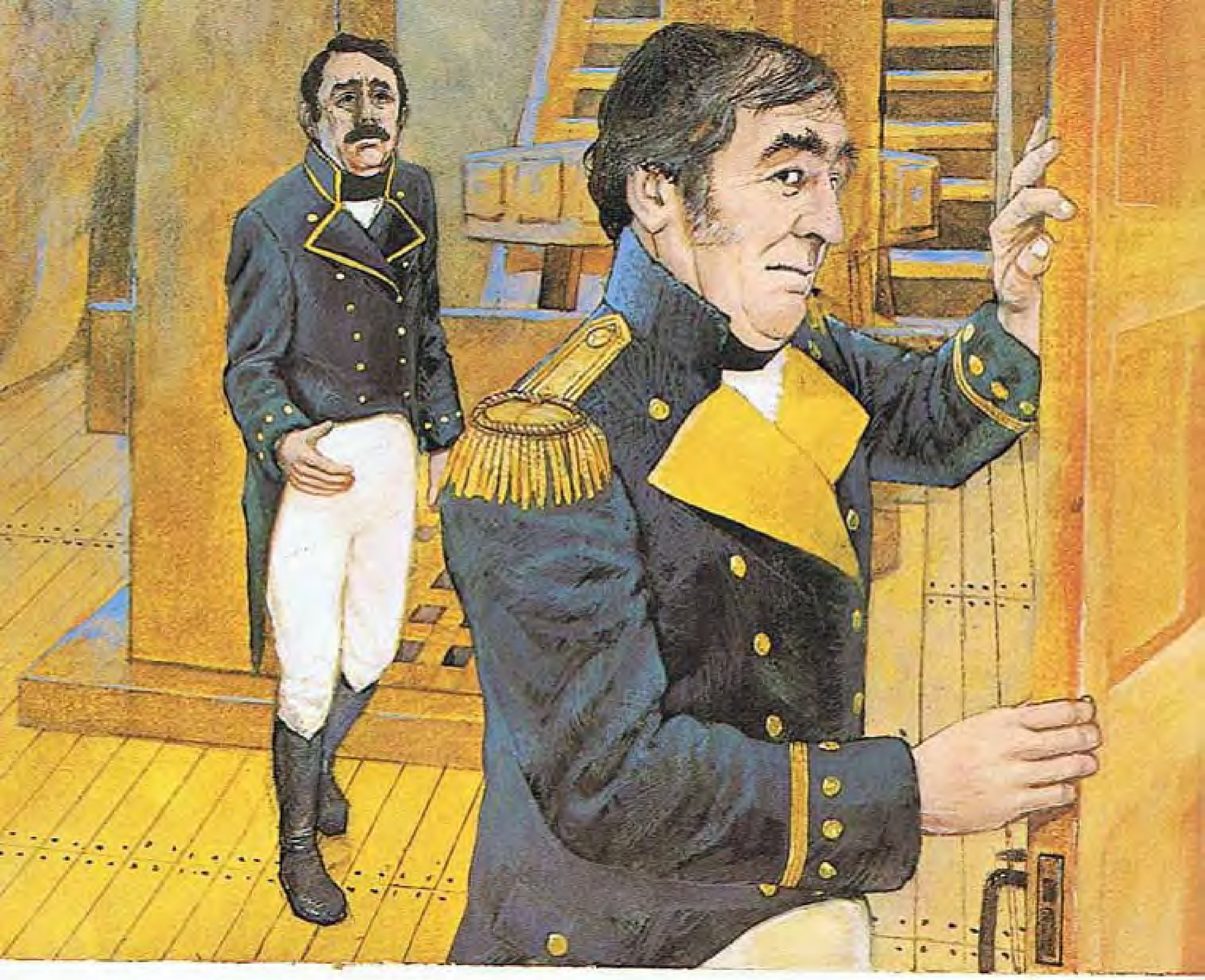
«وعَلَيَّ أنْ أُضيفَ أنه بَيْنَما نَحْنُ نَتَباحَثُ طَويلًا في هٰذِهِ القَضِيَّةِ ، قد يَكونُ العَدُوُّ على مَقْرُبَةٍ مِنّا ، وقد تكونُ المَعْرَكَةُ وَشيكَةَ الوُقوعِ . عَلَيْنا أنْ نَتَّخِذَ قرارًا – فإمّا أنْ نَحْكُمَ على بَض بِالمَوْتِ ، أو نُطْلِقَ سَراحَهُ .»

سَأَلَ أَحَدُ الضُّبّاطِ بِصَوْتٍ مُضْطَرِبٍ : «أَلا نَسْتَطيعُ أنْ نَدينَهُ ، ونُخَفِّفَ العُقوبَةَ ؟»

قالَ القُبْطانُ : «أَيُّها السّادَةُ ، عَلَيْكُمْ أنْ تُفكِّروا في عَواقِبِ مِثْلِ هٰذا القَرارِ . فالبَحّارَةُ ، في كَثْرَتِهِمْ ، مُطَّلِعونَ على قَوانينِ البَحْرِيَّةِ ، ويَعْرِفونَ عُقوبَةَ مِثْلِ هٰذا العَمَلِ . فكَيْفَ تكونُ رِدَّةُ فِعْلِهِمْ تِجاهَ هٰذِهِ الرَّأْفَةِ ؟ حتّى لو أَمْكَنَنا أنْ نَشْرَحَ لَهمُ الأَمْرَ – وهو ما لا تَسْمَحُ لنا به مَراكِزُنا – فقد لا يَفْهَمونَ مُسَوِّغاتِنا في التَّمْييزِ بَيْنَ هٰذِهِ الحالَةِ وسِواها مِنَ الحالاتِ .

«لا ، فالرِّجالُ سيَنْظُرونَ إلى فِعْلِ كَشّافِ الصّارِيَةِ نِظْرَتَهُمْ إلى جَريمَةِ قَتْلٍ وتَمَرُّدٍ واضِحٍ . وإنْ لم يَلِ القِصاصُ الّذي يَتَوَقَّعونَهُ ذٰلِكَ الفِعْلَ ، فإنّهم يَشْرَعونَ بِالتَّساؤُلِ . لقد سَمِعوا بِما وَقَعَ من تَمَرُّدٍ في الأُسْطولِ البَريطانِيِّ ، وسيَظُنّونَ أنّنا نخافُهُمْ . أُشْفِقُ على هٰذا الفَتى المَنْكودِ الحَظِّ ، يا أَصْحابي ، مِثْلَما تُشْفِقونَ أَنْتُم عَلَيْهِ . لٰكِنّه يَعْلَمُ ما في صُدورِنا ... إنّي أَشْعُرُ بِذٰلِكَ . إنّ طَبيعَتَهُ الخَيِّرَةَ تَجْعَلُهُ يَعْلَمُ ما في صُدورِنا ، وسيُسامِحُنا على القَرارِ الّذي لا بُدَّ لنا من أَخْذِهِ .»

وهٰكَذا أُدينَ المُتَّهَمُ وحُكِمَ عَلَيْهِ بِالمَوْتِ شَنْقًا . وكانَ الوَقْتُ مُتَأَخِّرًا ، فلم يُنَفَّذِ الحُكْمُ في الحالِ ، كما تَقْضي قَوانينُ المَحاكِمِ المَيْدانِيَّةِ ، وأُجِّلَ التَّنْفيذُ إلى صَباحِ اليَوْمِ التّالي .



قَرَّرَ القُبْطانُ أنْ يَنْقُلَ بِنَفْسِهِ إلى السَّجينِ حُكْمَ المَحْكَمَةِ ، لأنّه لم يُرِدْ أنْ يَتحَمَّلَ هٰذا العِبْءَ شخْصٌ غَيْرُهُ. ولا يَعْلَمُ أَحَدٌ ما دارَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ في ذٰلِكَ اللِّقاءِ. ولٰكِنْ لِلمَرْءِ أنْ يُخَمِّنَ أنْ يَكونَ القُبْطانُ قد نَقَلَ إلى بِلي المُناقَشاتِ والحُكْمَ ، وأنْ يَكونَ قد شَرَحَ له أَيْضًا أَسْبابَ ذٰلِكَ الحُكْمِ. كما لا يَعْلَمُ أَحَدٌ ما كان جَوابُ بِلي لِلقُبْطانِ ؛ وهٰذا أَيْضًا يُمْكِنُ تَخْمينُهُ من خِلالِ سُلوكِهِ بَعْدَ ذٰلِكَ اللِّقاءِ.

اِلْتَقى الضّابِطُ الأَوَّلُ القُبْطانَ ڤير لَحْظَةَ خُروجِهِ من عِنْدِ بِلي. وأَذْهَلَهُ أنْ يَرى ذٰلِكَ الرَّجُلَ القَوِيَّ وقدِ ارْتَسَمَتْ على وَجْهِهِ آثارُ آلامٍ وِجْدانِيَّةٍ مُبَرِّحَةٍ.

لم يَتَجاوَزِ الوَقْتُ الّذي انْصَرَمَ بَيْنَ لَحْظَةِ دُخولِ بِلي إلى قَمْرَةِ القُبْطانِ والحُكْمِ بإدانَتِهِ ، السّاعَةَ ونِصْفَ السّاعَةِ . لكِنَّ ذٰلِكَ كانَ كافِيًا في أنْ يَبْعَثَ تَساؤُلاتٍ عَنِ السَّبَبِ الّذي يَعوقُ عَوْدَةَ ضابِطِ السِّلاحِ وكَشّافِ الصّارِيَةِ كُلَّ ذٰلِكَ الوَقْتِ .

وذاعَ أنّ الرَّجُلَيْنِ دَخَلا قَمْرَةَ القُبْطانِ ، لٰكِنْ لم يُرَ أَيٌّ مِنهما يَخْرُجُ من هُناكَ . لِذا ، لم يُفاجَإِ البَحّارَةُ عِنْدَما أُمِروا أنْ يَتَوَجَّهوا كُلُّهُمْ إلى سَطْحِ السَّفينَةِ . فقد كانوا يَتَوَقَّعونَ أنْ يَصْدُرَ بَيانٌ مُفاجِئٌ .

كانَ البَحْرُ في تِلْكَ السّاعَةِ هادِئًا . وكانَ القَمَرُ قد بَدَأَ يَرْتَفِعُ في كَبِدِ السَّماءِ ، مُلْقِيًا على سَطْحِ السَّفينَةِ ظِلالاً فِضِّيَّةً ، تَتَحَرَّكُ بَيْنَ الأَشْباحِ القاتِمَةِ لِلرِّجالِ المُحْتَشِدينَ . وكانَ القُبْطانُ يَقِفُ هُناكَ مُحاطًا بِضُبّاطِهِ ومُشاةِ البَحْرِيَّةِ . وبَعْدَ بُرْهَةِ صَمْتٍ ، أَخْبَرَ الجَمْعَ بِكَلِمَةٍ مُخْتَصَرَةٍ واضِحَةٍ بما وَقَعَ في قَمْرَتِهِ عَصْرَ ذٰلِكَ اليَوْمِ ؛ وأنّ ضابِطَ السِّلاحِ قد قُتِلَ ؛ وأنّ مَحْكَمَةً مَيْدانِيَّةً الْتَأَمَتْ لِمُحاكَمَةِ القاتِلِ ، فأَدانَتْهُ وحَكَمَتْ عَلَيْهِ بِالمَوْتِ ؛ وأنّ الحُكْمَ يُنَفَّذُ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي .



لم يَذْكُرِ القُبْطانُ في خِطابِهِ القَصيرِ لَفْظَةَ «تَمَرُّدٍ» ، ولم يُؤَكِّدْ على حِفْظِ النِّظامِ ، كما تَعَوَّدَ أنْ يَفْعَلَ . واسْتَمَعَ البَحّارَةُ إلى الخِطابِ بِصَمْتٍ مُطْبِقٍ ، وبَدا كأنّهم هم أَيْضًا أَصابَهُمْ ، ما كانَ أَصابَ بِلي ، من ذُهولٍ وعِيٍّ . على أيِّ حالٍ ، فإنّه عِنْدَما خَتَمَ القُبْطانُ كَلامَهُ سُمِعَتْ هَمْهَماتٌ ، سُرْعانَ ما أَخَذَتْ تَزْدادُ قُوَّةً . عِنْدَها أَعْطى القُبْطانُ إشارَةً ، فعَلَتْ صَفّاراتٌ جارِحَةٌ ، مَزَّقَتْ تِلْكَ الهَمْهَماتِ ، وأُعْطِيَ أَمْرٌ بِعَوْدَةِ البَحّارَةِ إلى مَراكِزِهِمْ ، فعادَ كُلٌّ إلى المَكانِ الّذي جاءَ منه طائِعًا صامِتًا .

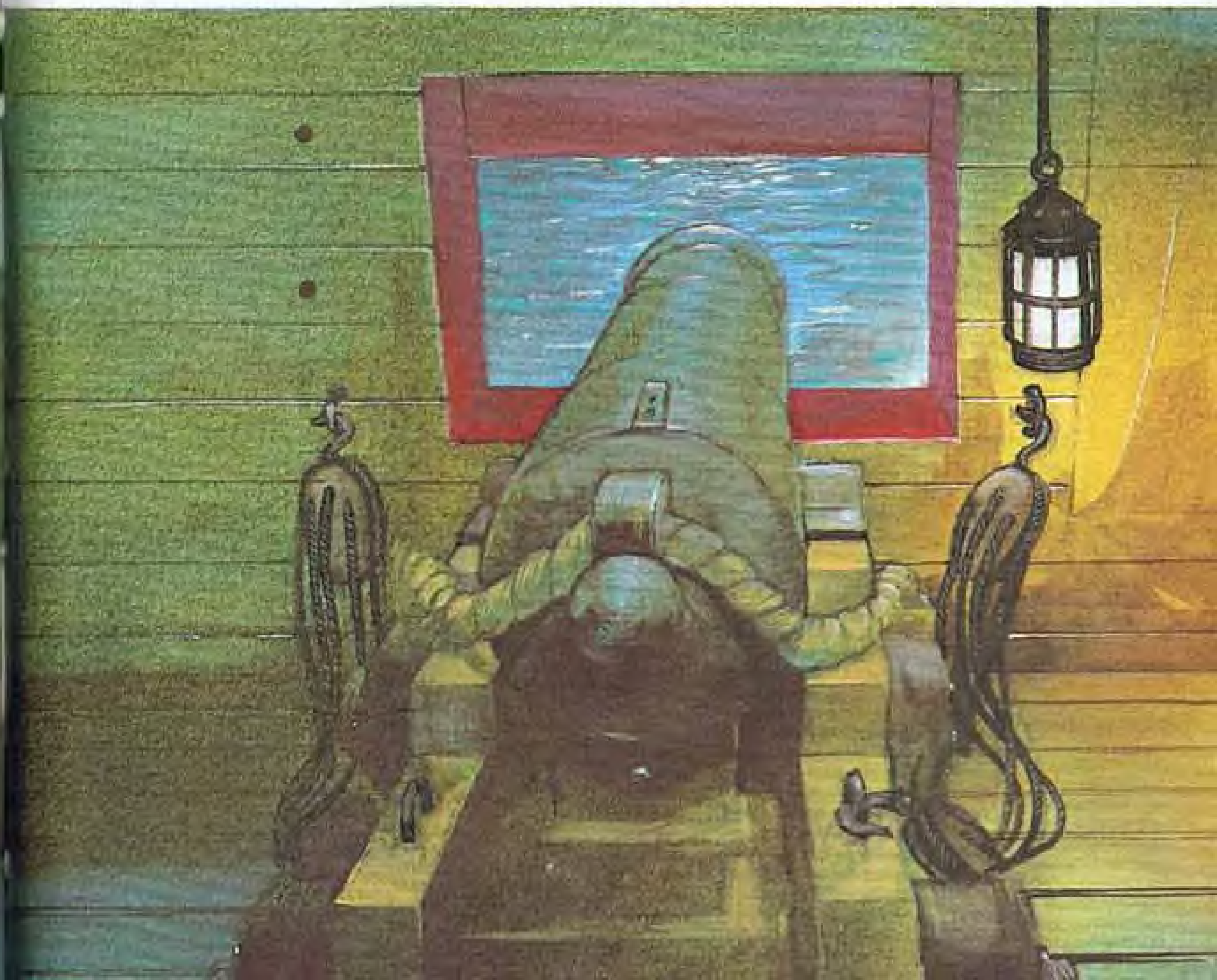
أُقيمَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ بِوَقْتٍ قَصيرٍ جَنازَةُ كْلاغَرْت . وأُلْقِيَ جُثْمانُهُ في البَحْرِ ، وَفْقَ المَراسِمِ الّتي تَقْتَضيها رُتْبَتُهُ كَضابِطِ سِلاحٍ .



حَرَصَ المَسْؤولونَ على التَّقيُّدِ بِدَقائِقِ المَراسِمِ ، ذٰلِكَ أَنّه قد يَترَتَّبُ على أَيِّ تَقْصيرٍ شُيوعُ تَخْميناتٍ غَيْرِ مَرْغوبٍ فيها. ولِهٰذا السَّبَبِ نَفْسِهِ امْتَنَعَ القُبْطانُ عنِ الاتِّصالِ بِبِلي ، بَعْدَ ذٰلِكَ اللِّقاءِ المُشارِ إِلَيْهِ آنِفًا ، بِأَيِّ صورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ.

نُقِلَ بِلي إلى مِنَصَّةِ المِدْفَعِيَّةِ ، حَيْثُ جَرَتِ العادَةُ أَنْ يَقْضِيَ المَحْكومُ عَلَيْهِ بِالمَوْتِ لَيْلَتَهُ الأَخيرَةَ. ووُضِعَ تَحْتَ حِراسَةٍ مُشَدَّدَةٍ ، ولم يُسْمَحْ لأَحَدٍ بِالاقْتِرابِ منه.

وكانَ أَنْ قَضى بِلي لَيْلَتَهُ الأَخيرَةَ على وَجْهِ هٰذِهِ الأَرْضِ وَحيدًا ، مُمَدَّدًا على مِنَصَّةِ المِدْفَعِيَّةِ في سَفينَةِ جَلادَتِهِ ، مُرْهَقًا بِقُيودِهِ الحَديدِيَّةِ الثَّقيلَةِ. باتَ



بَيْنَ مِدْفَعَيْنِ ثَقيلَيْنِ من مَدافِعِ السَّفينَةِ كانَ لَوْنُهما الأَسْوَدُ الحالِكُ يُشَكِّلُ مَعَ ثِيابِ بِلي البَيْضاءِ مُفارَقَةً صارِخَةً.

وكانَ النّاظِرُ إلى الشّابِّ المُثْقَلِ بالقُيودِ يُلاحِظُ أَنّه لم يَعُدْ يَتَعَذَّبُ ؛ فقد كانَ مُمَدَّدًا هُناكَ ساكِنًا ، يَبْتَسِمُ بَيْنَ وَقْتٍ وآخَرَ ، وكأَنَّما هو مُسْتَغْرِقٌ في الذِّكْرَياتِ.

مَرَّ اللَّيْلُ عَلَيْهِ بَطيئًا ، إلى أَنْ أَلْقى الفَجْرُ على وَجْهِهِ خُيوطَهُ الأولى. ثمّ قَطَعَ الصَّمْتَ فَجْأَةً صَوْتُ جَرَسٍ يُقْرَعُ مَرّاتٍ. اِخْتَلَجَ جَسَدُ بِلي. كانَتِ السّاعَةُ الرّابِعَةَ صَباحًا. وتَبِعَ صَوْتَ الجَرَسِ أَصْواتُ صَفّاراتٍ تَدْعو الرِّجالَ إلى حُضورِ عَمَلِيَّةِ الإعْدامِ. وسُرْعانَ ما احْتَشَدَ الرِّجالُ صامِتينَ.

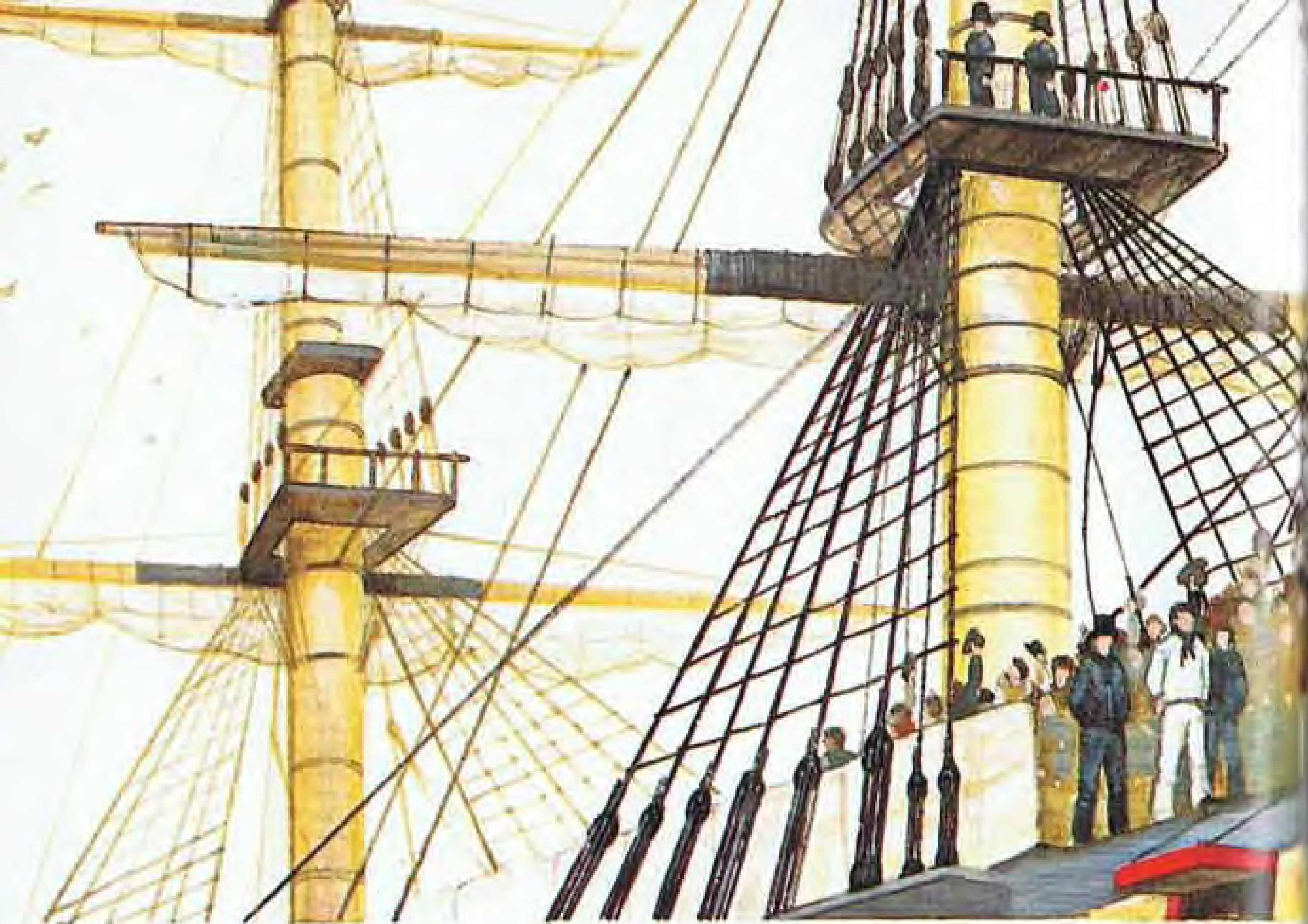




في هٰذا اليَوْمِ أَيْضًا ، كما في اليَوْمِ السّابِقِ ، وَقَفَ القُبْطانُ ڤير مُحاطًا بِضُبّاطِهِ ومُشاةِ البَحْرِيَّةِ. ووَقَفَ السَّجينُ في ظِلِّ ذِراعِ الشِّراعِ الّذي يَتَدَلّى منها حَبْلُ المِشْنَقَةِ ، مُواجِهًا القُبْطانَ. كانَتْ يَداهُ مُوثَقَتَيْنِ خَلْفَ ظَهْرِهِ ، لٰكِنَّ رَأْسَهُ كانَ شامِخًا. نَظَرَ في عَيْنَي القُبْطانِ ، وكأنّما يُبَلِّغُهُ رِسالَةً سِرِّيَّةً. وقَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ إلى حَبْلِ المِشْنَقَةِ ، هَتَفَ بِصَوْتٍ رَنّانٍ واضِحٍ غَيْرِ مُضْطَرِبٍ ، شَقَّ ضَوْءَ الصَّباحِ الصّامِتِ المُتَموِّجِ ، قائِلًا : «لِيُبارِكِ اللهُ القُبْطانَ !»

فاجَأَتْ تِلْكَ العِبارَةُ الجَميعَ ، وخَرَجَتْ عَلَيْهِمْ صَدّاحَةً وَضّاحَةً كما تَخْرُجُ الموسيقى. فكانَ أَنْ تَرَكَتْ في نُفوسِهِمْ أَثَرًا غَريبًا. وعلى الرَّغْمِ من أنَّ عُيونَهُمْ ظَلَّتْ عالِقَةً في بِلي ، فقد هَتَفوا جَميعًا وَراءَهُ : «لِيُبارِكِ اللهُ القُبْطانَ !»

وَقَفَ القُبْطانُ على أَثَرِ تِلْكَ العِبارَةِ ، والهُتافِ الّذي تَرَدَّدَ وَراءَها ، مُنْتَصِبًا انْتِصابًا جامِدًا ، وكأنّما هو صارِيَةٌ من صَواري السَّفينَةِ. ولم يُعْرَفْ هَلْ كانَتْ وِقْفَتُهُ تِلْكَ نَتيجَةَ قُدْرَةٍ فائِقَةٍ على التَّحَكُّمِ بالنَّفْسِ ، أَمْ أَنّها نَوْعٌ مِنَ الشَّلَلِ المُؤَقَّتِ تَسَبَّبَتْ به صَدْمَةٌ وِجْدانِيَّةٌ عَنيفَةٌ.



مالَتِ السَّفينَةُ مَعَ مَوْجَةٍ مُفاجِئَةٍ ، فاخْتَلَجَ القُبْطانُ ، ورَفَعَ يَدَهُ مُؤْذِنًا بِتَنْفيذِ الإعْدامِ. رُفِعَ بِلي إلى خَشَبَةِ الإعْدامِ ، والعُيونُ كُلُّها عالِقَةٌ فيه. وأَطَلَّتِ الشَّمْسُ ، في هٰذِهِ اللَّحْظَةِ ، من وَراءِ الأُفُقِ وغَمَرَتْهُ بنورِها ، فتَأَلَّقَ في مَكانِهِ العالي كأنّه مَلاكٌ.

ثمّ سَقَطَ ، فشَدَّتِ الأُنْشوطَةُ على عُنُقِهِ. الْتَوى رَأْسُهُ وهَمَدَ جَسَدُهُ ، لٰكِنّه ظَلَّ يَتَأَرْجَحُ مَعَ حَرَكَةِ السَّفينَةِ الّتي كانَتْ تَتَمايَلُ بِبُطْءٍ وجَلالٍ.

إلّا أنَّ الصَّمْتَ الّذي سادَ لَحْظَةَ الإعْدامِ ولَحَظاتٍ قليلةً بَعْدَهُ ، بَدَأَ يُعَكِّرُهُ تَدْريجًا صَوْتٌ يَصْعُبُ وَصْفُهُ ، هو صَوْتُ أَنينٍ مُتَعاظِمٍ لِرِجالٍ مَحْزونينَ. لٰكِنْ لم يُتَحْ لِذٰلِكَ الأَنينِ أنْ يَتَحَوَّلَ إلى هَديرٍ ، فقدِ انْطَلَقَتِ الصَّفّاراتُ الجارِحَةُ ، وأُعْطِيَ أَمْرٌ بالتَّفَرُّقِ.

ثُقِّلَ السَّريرُ الشَّبَكِيُّ الّذي كانَ ينامُ فيه بِلي في حَياتِهِ ، وأُعِدَّ لِيَكونَ كَفَنًا له . وعِنْدَما تَمَّتِ الاِسْتِعْداداتُ ، طُلِبَ إلى الجميعِ مَرَّةً أُخرى أنْ يَتجَمَّعوا لِيَشْهَدوا مَراسِمَ الجَنازَةِ .

لا حاجَةَ لِذِكْرِ تَفاصيلِ تِلْكَ المَراسِمِ ، إلّا ما حَدَثَ عِنْدَما انْزَلَقَ جُثْمانُ البَحّارِ إلى جَوْفِ المُحيطِ . فقدِ ارْتَفَعَ أَنينُ الرِّجالِ المَحْزونينَ مَرَّةً أُخْرى ، وتَعاظَمَ . لٰكِنَّه هٰذِهِ المَرَّةَ جاءَ مَمْزوجًا بِزَعيقِ طُيورِ البَحْرِ الّتي كانَتْ تُحَوِّمُ فَوْقَ المَكانِ شاهِدَةً ، مَعَ ابْتِعادِ السَّفينَةِ ، على مَثْوى البَحّارِ الأَخيرِ .

بَدَأَ يَوْمٌ جَديدٌ . وأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ ساطِعَةً في السَّماءِ الزَّرْقاءِ . وانْصَرَفَ كُلٌّ إلى عَمَلِهِ .

على المَرْءِ ، قَبْلَ أنْ يَخْتِمَ هٰذِهِ القِصَّةَ ، أنْ يَرْوِيَ أَيْضًا ما حَدَثَ لِسَفينَةِ البَليپوتَنْت وبَحّارَتِها . فقدِ اشْتَبَكَتْ ، في طَريقِ عَوْدَتِها لِلاِلْتِحاقِ بِأُسْطولِ المُتَوَسِّطِ ، مَعَ سَفينَةٍ من سُفُنِ الأَعْداءِ . أُصيبَ القُبْطانُ فير في المَعْرَكَةِ بِجُرْحٍ بَليغٍ ، ونُقِلَ إلى قَمْرَتِهِ بَيْنَ المَوْتِ والحَياةِ . وتَوَلّى الضّابِطُ الأَوَّلُ المَسْؤولِيَّةَ ، وقادَ رِجالَهُ إلى نَصْرٍ اسْتَوْلَوْا مَعَهُ على السَّفينَةِ المُعادِيَةِ . وعلى الرُّغْمِ من أنَّ السَّفينَتَيْنِ ، الآسِرَةَ والمَأْسورَةَ ، أُصيبَتا في المَعْرَكَةِ بِأَضرارٍ جَسيمَةٍ ، فقد وَصَلَتا إلى ميناءٍ في جَبَلِ طارِقٍ .

وهُناكَ نُقِلَ القُبْطانُ إلى مُسْتَشْفًى . ونُقِلَ أَيْضًا الجَرْحى مِنَ الرِّجالِ ، وكانوا يُشَكِّلونَ ثُلُثَ القُوَّةِ الّتي كانَتْ تَحْمِلُها السَّفينَةُ . وماتَ القُبْطانُ بَعْدَ أَيّامٍ قَليلَةٍ مِنَ الاِحْتِضارِ . وقد سُمِعَ يُتَمْتِمُ ، قُبَيْلَ مَوْتِهِ ، قائِلًا : «بِلي بَض ، بِلي بَض .» ولم يَفْهَمِ الطَّبيبُ مَعْنًى لِما يَقولُ .



بَعْدَ أَسابيعَ من شَنْقِ كَشّافِ الصّارِيَةِ نُشِرَ في إحْدى الصُّحُفِ رِوايَةٌ تَتَناوَلُ تِلْكَ الحادِثَةِ. ولِلْقارِئِ أنْ يَحْكُمَ بِنَفْسِهِ على تِلْكَ الرِّوايَةِ:

«في العاشِرِ مِنَ الشَّهْرِ المُنْصَرِمِ وَقَعَ على مَتْنِ سَفينَةِ البَلّيبوتَنْت حادِثٌ مُحْزِنٌ. فقد اكْتَشَفَ جون كْلاغَرْت، ضابِطُ السِّلاحِ، أنّ مَكيدَةً كانَتْ تُحاكُ بَيْنَ بَعْضِ البَحّارَةِ لِلقِيامِ بِحَرَكَةِ تَمَرُّدٍ. وعَلِمَ ضابِطُ السِّلاحِ أنّ قائِدَ حَلْقَةِ التَّمَرُّدِ تِلْكَ هو البَحّارُ بِلي بَض، فَأَبْلَغَ الأَمْرَ إلى القُبْطانِ ڤير. وبَيْنَما كانَ يُلْقي بِشَهادَتِهِ أَمامَ القُبْطانِ انْقَضَّ بَض عَلَيْهِ وغَرَزَ سِكّينَهُ في قَلْبِهِ.

«وتَتَكَشَّفُ فَداحَةُ الجُرْمِ، وفَظاعَةُ المُجْرِمِ، إذا عَلِمْنا أنّ الضَّحِيَّةَ كانَ رَجُلًا خَلوقًا عالِيَ الهِمَّةِ، وكانَ ذا مَسْؤولِيّاتٍ جِسامٍ يُؤَدّيها بِصَمْتٍ دونَ انْتِظارِ مُكافَأَةٍ أو شُكْرانٍ. لقد كانَ حافِزَهُ إلى العَمَلِ حُبُّ الوَطَنِ، وكانَ شِعارَهُ: حُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإيمانِ.

«دَفَعَ المُجْرِمُ ثَمَنَ جَريمَتِهِ. وأَعْطى القِصاصُ العادِلُ السَّريعُ ثِمارَهُ، فإنّه لم يُسْمَعْ بَعْدَ ذلِكَ بِأَيِّ اضْطِرابٍ على مَتْنِ سَفينَةِ جَلالَتِهِ، البَلّيبوتَنْت.»

إنّ الرِّوايَةَ أَعْلاهُ، والّتي ظَهَرَتْ في صَحيفَةٍ طَواها النِّسْيانُ، هي وَحْدَها الّتي بَقِيَتْ في سِجِلِّ البَشَرِ، لِتَشْهَدَ على الأَخْلاقِ الّتي كانَ عَلَيْها كُلٌّ من ضابِطِ السِّلاحِ وكَشّافِ الصّارِيَةِ.



هيرمَنْ مَلْفِل



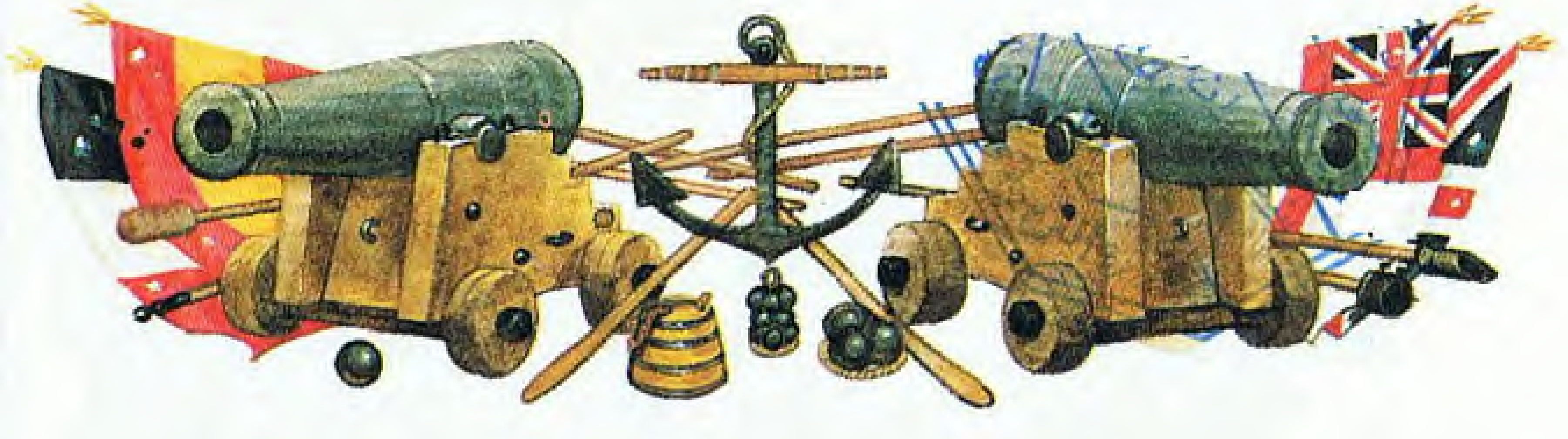
وُلِدَ هيرمَنْ مَلْفِل في الأَوَّلِ مِنْ آبٍ (أغسطس) سَنَةَ ١٨١٩ في مَدينَةِ نيويورك، وكانَ والِدُهُ تاجِرًا ووالِدَتُهُ ابْنَةَ عائِلَةٍ ثَرِيَّةٍ مِنْ أَصْلٍ هولَنْدِيٍّ.

كانَ هيرمَن الثّالِثَ بَيْنَ أَبْناءِ العائِلَةِ الثَّمانِيَةِ؛ وقَدْ وَجَدَ نَفْسَهُ سَنَةَ ١٨٣٢، وهو في الثّانِيَةَ عَشْرَةَ، مُضْطَرًّا لِلعَمَلِ لِلمُساهَمَةِ في إعالَةِ الأُسْرَةِ، بَعْدَ أَنْ تُوُفِّيَ والِدُهُ. وقَدْ دَفَعَهُ حُبُّهُ لِلتَنَقُّلِ إلى العَمَلِ كَبَحّارٍ على مَتْنِ سَفينَةٍ تِجارِيَّةٍ فَأَبْحَرَ إلى «ليڤربول» في إنكلْترا، ثُمَّ عادَ إلى أَميركا حَيْثُ مارَسَ التَّعْليمَ في إحْدى المَدارِسِ فَتْرَةً وَجيزَةً. ثُمَّ الْتَحَقَ بِعَمٍّ لَهُ يَقومُ بِرِحْلاتٍ اسْتِكْشافِيَّةٍ في نَهرِ المِسيسبّي. قَرَّرَ، بَعْدَ ذلِكَ، التَّحَوُّلَ إلى صَيْدِ الحيتانِ، فَانْضَمَّ، عامَ ١٨٤١، إلى سَفينَةِ صَيْدِ الحيتانِ «أكوشنِت». اِتَّجَهَتِ السَّفينَةُ جَنوبًا ودارَتْ حَوْلَ رَأْسِ «هورن» وأَخَذَت تَجوبُ جُزُرَ جَنوبِ المُحيطِ الهادي. تَرَكَ مَلْفِل السَّفينَةَ في جُزُرِ «مَرْكيز» وأَمْضى شَهْرًا وَحيدًا بَيْنَ مُتوحِّشي وادي «تايْبي»، ثُمَّ انْضَمَّ إلى سَفينَةٍ أُستراليَّةٍ لِصَيْدِ الحيتان تَوَجَّهَتْ إلى «تاهيتي». قامَ مَلْفِل مَعَ عَشَرَةٍ مِنَ البَحّارَةِ بِمُحاوَلَةِ تَمَرُّدٍ قادَتْهُمْ إلى السِّجْنِ. وقَدْ تَمَكَّنَ مِنَ الفِرارِ والوُصولِ إلى جَزيرَةِ «موريا» القَريبَةِ. ما لَبِثَ مَلْفِل أَنْ عَمِلَ في سَفينَةٍ أَميرِكيَّةٍ لِصَيْدِ الحيتانِ وَصَلَتْ بِهِ إلى «هاواي» حَيْثُ تَرَكَها وانْخَرَطَ في سِلْكِ البَحْرِيَّةِ الأَميرِكيَّةِ. عادَ إلى وَطَنِهِ سَنَةَ ١٨٤٤، وكانَ آنَذاكَ في الخامِسَةِ والعِشْرينَ

كانَ مَلْفِل يَجْلِسُ إلى أُمِّهِ وإخوَتِهِ ويُخبِرُهُمْ قِصَصَ مُغامَراتِهِ في البَحْرِ ، فكانَ ذلِكَ مُنْطَلَقًا لِلقِيامِ بِالكِتابَةِ ، فظَهَرَتْ رِوايَتاهُ «تايبي» (Typee) ١٨٤٦ ، و«أومو» (Omoo) ١٨٤٧ ، وكانَتا سَبَبًا لِشُهْرَتِهِ وذُيوعِ اسْمِهِ. تَزَوَّجَ مَلْفِل سَنَةَ ١٨٤٧ مِنْ إليزابث شو ابْنَةِ رَئيسِ المَحْكَمَةِ العُلْيا في وِلايَةِ «ماساتشوستس» واسْتَقَرَّ في نيويورك.

لم يَشْهَدْ إنْتاجُ مَلْفِل الأَدَبيُّ اسْتِمْرارَ النَّجاحِ إذْ أَلَّفَ في العامَيْنِ ١٨٤٩ و ١٨٥٠ ثَلاثَ رِواياتٍ لَمْ تَلْقَ اسْتِحْسانًا كَبيرًا (Mardi - Redburn - White Jacket). اِقْتَرَضَ مَبْلَغًا مِنَ المالِ مِنْ حَميهِ واشْتَرى بِهِ مَزْرَعَةً أَقامَ فيها مُنْكَبًّا على الكِتابَةِ ، فَأَخْرَجَ سَنَةَ ١٨٥١ رِوايَةَ **«موبي دِك»** (Moby Dick) الّتي اسْتَوْحاها مِنْ تَجْرِبَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ على مَتْنِ السَّفينَةِ «أكوشنِت». ولَمْ تُصِبْ هٰذِهِ الرِّوايَةُ أَيْضًا شُهْرَةً عِنْدَ صُدورِها.

مَرَّتِ السِّنونُ بَعْدَ ذٰلِكَ على مَلْفِل ثَقيلَةَ الوَطْأَةِ ، إذْ كانَ يُعاني مِنْ فَشَلِهِ الأَدَبيِّ وصِحَّتِهِ العَليلَةِ ووَضْعِهِ المالِيِّ الحَرِجِ ، إلى أَنْ تُوُفِّيَ سَنَةَ ١٨٩١. فَلَمْ يَشْهَدِ النَّجاحَ الفائِقَ الّذي أَحْرَزَتْهُ ، بَعْدَ وَفاتِهِ ، رِوايَةُ «موبي دِك» ، ولا المكانَةَ الرَّفيعَةَ الّتي احْتَلَّتْها رِوايَةُ **«البَحّار»** (Billy Budd) الّتي خَلَّفَها وراءَهُ قُصاصاتٍ مُتَناثِرَةً جُمِعَتْ ونُشِرَتْ سَنَةَ ١٩٢٤



كتب الفراشة - القصص العالميّة

١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليفَرتْويسْت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْفيل
٨ - قِصّة مَدينَتين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير

كتب الفراشة

القِصص العالميّة ٥. البَحّار

اِخْتارَت **مَكتبة لبنان ناشرون** أَرْوَعَ القِصص العالَمِيّة ، ونَقَلَتها إلى العَربيَّة مُبسَّطة ، مُراعِيَة الأَمانَة في النَّقل والمُحافَظة على جَزالة الأُسْلوب العَربيّ وبَلاغته ، مَع تَشكيل كامِل وضَبْط دَقيق. وقد أَشْرَفَ عَلى هٰذه السِّلسلة خبَراء دائِرَتي النَّشْر والمَعاجم في مكتبة لبنان ناشرون حتّى نُوفِّر للقارِئ العربيّ إنْتاجًا فكريًّا مُتفوِّقًا مَظْهرًا ومَضْمونًا .



مَكتبة لبنان ناشِرون

Ø1C196805